١٠٨٠
Wahas
دار م. النحاس

كبير

1080
HARLEQUIN

اسرة جاهزة

داني كريس

www.elromancia.com

مـــرمـــوريـــة

اسرة جاهزة

داني كريس

كانت ميغان ماكليستر تريد أن تبدأ من جديد... من دون ارتباطات، ولكن جارها الجديد سام أرمسترونغ كان مميزاً... وكذلك الطفلين الصغيرين اللذين كان يربيهما.

بالرغم من نواياها الحسنة، فقد وجدت نفسها منساقة إلى التدخل في حياة سام الفوضوية الذي كان يتولى مهمة أب اعزب... وإلى حبه أيضاً.

ولكن ميغان كانت تعلم أن سعادتها هذه لا يمكن أن تدوم. فهي لن يكون بإمكانها أن تستعيد أسرتها المفقودة، أو أن تخاطر بقلبها بعد الآن، حتى ولو كان ذلك يعني أنها لن تصبح أبداً زوجة أو أماً مرة أخرى...

لبنان: ٣٠٠٠ ل.ل - سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١ دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١,٥ دينار - مصر: ٤ جنيه - المغرب: ٨ درهم مغربي - سلطنة عمان ١ ريال.

حين رأت ميغان وجه طفل رضيع يحبو على يديه وركبتيه وقد تطلخ وجهه بالشوكولا، تلاشت المناظر بأجمعها من امام عينيها. كانت بيكا تقول شيئاً لم تفهمه ميغان. ذلك ان ذاكرتها قد عادت بها إلى الماضي. ايام كلفتها كل ما في طاقتها لكي تستطيع تجاوزها... لقد خسرت الكثير.

داني كريس

فكرت في كتابة الروايات العاطفية منذ قرأت، لأول مرة، رواية جين أوستن الكبرياء والتحيز، وفي المدرسة الثانوية كانت تلهو بقراءة الشعر والقصص القصيرة، رغم أنها، في اعماقها، كانت تشعر أن قصة وقصيرة هما كلمتان متناقضتان.

حشرت وقت جلوسها للكتابة بين عملها كمديرة مكتب، واهتمامها بأسرتها، وهي تعيش في مدينة كنساس مع دان زوجها الرائع ذي الرابعة والعشرين من العمر، وابنتيها الجميلتين، كريسي وسارة، ومجموعة متنوعة من الحيوانات الأليفة.

عبير ١٠٨٠

Abir 1080

أسرة جاهزة

داني كريس

دار
م. النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromansia.com

الفصل الأول

أخذت ميغان ماكليستر تتأمل، من حيث كانت تقف في الطريق القصير المؤدي إلى منزلها الجديد، ذلك الرجل الذي كان يسير متجهاً نحو الشارع.

وتنهدت جوان جاكوبس تاجرة العقارات والتي كانت تقف بجانبها، وهي تقول: «يا له من رجل. إنه أشهر رجل اعزب في المدينة. وهو يعيش هناك.» وأشارت إلى المنزل القائم في نهاية المرج الأخضر. وتملك ميغان الذعر وهي تدرك أنه سيكون جارها المباشر هذا بينما تابعت جوانا قائلة عندما اقترب الرجل من الطريق المؤدي إلى بيتها. «سأعرفك عليه. مرحباً، يا سام.»

تباطأت خطواته، فانتظرت ميغان بينما كان هو يلوح بيده إلى جوان محيياً، ثم ينقل بصره بين السيارة المحملة وميغان، ليخرج بعد ذلك، منديلاً من جيبه، فيمسح به جبينه ورقبته، بينما كان يتقدم نحوهما وابتسامة عريضة تكسو وجهه فتبدو غمازتان عميقتان في وجنتيه وغضون الضحك تحيط بعينين لم تر ميغان بعمق زرقتهما من قبل، وكذلك جاذبيتهما غير العادية، كانت ابتسامته جميلة وقد وجهها نحوها مباشرة.

قالت جوان: «أقدم إليك ميغان ماكليستر.» فمد يده إلى ميغان يعرف بنفسه دون أن يحول نظره عنها: «سام آرمسترونغ.» وأشار إلى السيارة المحملة. «يبدو أنك بحاجة إلى بعض المساعدة لنقل اشيائك تلك.»

«سيستقر بي الأمر حالما أستعيد يدي.»

وكانت تشير بذلك إلى يدها التي كانت ماتزال في قبضته، فاتسعت ابتسامته، وبدا الهزل في نظراته وهو يترك يدها بينما يقول مخاطباً جوان: «انك لم تذكري، يا جوان، أن لجارتك روحاً فكاهية رائعة.»

كما أن جوان لم تذكر أن ميغان كانت بالغة الجاذبية. لم تكن تقاطيع وجهها، متفرقة، ذات جمال غير عادي ولكنها، مجتمعة، كانت تبدو جميلة، كان شعرها البني القاتم، يبرز جمال وجنتيها واستقامة أنفها وعينيها الواسعتين البنيتين، ما استحوذ على اهتمامه.

واعجبته لهجتها، فسألها قائلاً: «ان لصوتك وقعاً مميزاً. هل أنت من الساحل الشرقي، إيست كوست؟»

فأومأت قائلة: «نعم، من بوسطن.»

«وما الذي جعلك تحضرين إلى وسط الغرب، ميدوست؟»

فقالت: «وظيفة جديدة.» وشعرت بأنها تريد أن تخبره عن نفسها اكثر من ذلك... عن الأسباب التي جعلتها تهجر بيتها واصدقاءها، ولماذا كان عليها أن تبدأ من جديد، كان فيه شيء أنبأها بأنه من ذلك النوع الذي بإمكان المرء ان يتخذه موضعاً لثقته.

ولكنها لم تستطع، لقد حذرها قلبها من ذلك، ليس بإمكانها ان تضع ثقتها، مرة أخرى، لافيه ولا في أي رجل آخر... ليس بعد كل ما حصل لها، لقد تغيرت الأمور الآن بعد أن اصبحت في مدينة جديدة، وبيت جديد، وشركة جديدة تعمل فيها... ثم شخصية جديدة لها... نعم، لقد كانت عاهدت نفسها على هذا منذ اللحظة التي ابتدأت تحزم فيها

أمتعتها، ذلك أنها أصبحت الآن امرأة مختلفة تماماً عن تلك المرأة الخالية البال السريعة الثقة بالآخرين، والتي كانتها منذ تسعة أشهر.

قالت: «الأفضل أن أفتح باب المنزل. فالشاحنة التي تنقل أمتعتي ستكون هنا في أية لحظة، لقد سررت بمعرفتك يا سيد آرمسترونغ.»

فقال: «سام.»

«لا بأس يا سام. وأشكرك لعرض المساعدة.»

وابتسمت له، سامحة لنفسها بشيء من اللين والتجاوز عن بعض حذرها، ولكن لفترة قصيرة جداً إذ عاد إليها الحذر، إن عليها أن تبقي نفسها بعيدة عنه، رغم أنها أحست بصعوبة ذلك بالنسبة إلى هذا الرجل، وسارت إلى الباب الأمامي والمفاتيح في يدها، ففتحته ثم دخلت، تاركة إياه واقفاً في شمس الربيع الدافئة.

تمتم يقول وهو يراها تسير من نافذة إلى أخرى: «انها امرأة غامضة، ما الذي تعرفينه عنها يا جوان؟»

«كل ما اعرفه عنها، بجانب ما اخبرتك هي به، هو أنها عزباء.»

«أهذا كل ما تعرفينه؟»

اجابت: «نعم.»

فالح عليها يقول: «هيا، تكلمي، انك افضل تاجرة عقارات في المنطقة، وبإمكانك أن تستخلصي المعلومات من أي شخص دون أن يشعر بذلك.»

فقالت: «ان هذه السيدة بالغة التحفظ، انني آسفة، ولكن عليك أن تعثر على ما تريد معرفته، بنفسك.»

واتجهت نحو سيارتها تاركة سام يمعن التفكير فيما يجب عليه ان يقوم به. انه يريد أن يعلم المزيد عن جارته الجديدة هذه، فقد أثار تحفظها فضوله، واخيراً، صمم على أن يبدأ بأن يقدم لها المساعدة. فتوجه نحو صندوق سيارتها، ثم انزل أول صندوق.

أخذت ميغان تجيل النظر من نافذة المطبخ، حيث كانت واقفة أمام حوض الغسيل، إلى المروج الخضراء التي تحيط بمنزلها. كانت المنطقة حسنة بتلك المنازل التي كانت بنيت في السبعينات.

لقد أوحت إليها النظرة الأولى التي ألقتها على المنطقة هذه، شعوراً بالأمن والهدوء، وحسب قول تاجرة العقارات، كانت ميغان في سنيها الثماني والعشرين، أصغر مالكة لمنزل في هذه النواحي، ولا بد أن سام آرمسترونغ هو التالي في هذا، فهو لا يبدو اكبر منا بأكثر من ثلاث أو أربع سنوات، ولكنها سرعان ما تحولت عن التفكير به إلى الجار خلف منزلها.

كان الرجل يغرس قسماً من فنائه جاعلاً منه حديقة للخضار المنزلية، ربما بإمكانها هي أن تقوم بعمل كهذا فلا تلقي بنفسها كلياً في العمل، هذه المرة، ربما بإمكانها، هذه المرة، وفي هذا المكان، أن تستعيد اتزانها النفسي، وبالتالي تجد في حياتها شيئاً من السعادة.

ولكن ماذا بإمكانها بالنسبة إلى سام آرمسترونغ؟ ذلك أنه كان في الطريقة التي خفق بها قلبها لابتسامته، كان في ذلك إشارة صريحة إلى انها ستقع في غرامه، تماماً كما كان حدث معها بالنسبة إلى راندي، قائد فرقة كرة القدم في

المدرسة الثانوية، وبالنسبة إلى مارك، سمسار البورصة ذي الكلام المعسول والقلب الحجري.

ثم بعد ذلك أليكس، كان الأسوأ بين كل الرجال الذين أساءت اختيارهم، وعقدت ذراعيها فوق صدرها، لقد كان الألم في نفسها مازال حياً.

وجاءها صوت رجل يقول من عند عتبة الباب: «إن هذا الصندوق مكتوب عليه أنه يحتوي على الأشياء المتعلقة بفن الرسم.»

فاستدارت لترى سام آرمسترونغ يحمل صندوقاً أحضره من سيارتها، لقد كانت تركت باب صندوق السيارة مفتوحاً ما جعله يعتبر ذلك دعوة منها له.

وعاد يقول: «أين تريدينني أن أضعه؟»

فأشارت إلى المنضدة، ثم قالت بعد أن وضعه عليها: «أشكرك...»

وقبل أن تتلفظ بكلمة أخرى، سألها: «هل تحسنين الرسم؟»

وجدت نفسها تجيبه قائلة: «نعم، بعض الرسوم التخطيطية، وبالألوان المائية.»

«هل بعت منها شيئاً؟»

فهزت رأسها نفياً، كيف بإمكانها أن تشرح له أنها تجد في الرسم أمراً خاصاً بها، تجد فيه السلوى والمتعة والراحة؟

وألح عليها قائلاً: «هل سبق وحاولت؟»

فضحكت في نفسها لحماسه هذا وقالت: «كلا، ولكنني، عبر السنوات، وضعت بعضها في إطارات.»

فأومأ وكأنه يوافق على هذه الفكرة، وأدهشها الدفء

الذي شعرت به تجاهه. ودقت أجراس الإنذار في نفسها.

استدار نحو الباب قائلاً: «سأحضر صندوقاً آخر.»

فقالت راجية أن لا يكشف صوتها عما تشعر به من اضطراب: «كلا يا سام، اشكرك، يمكنني القيام بذلك بنفسي. انني متأكدة من أن لديك ما يشغلك.»

فقال: «إن الدقائق القليلة التي سيستغرقها إنزالنا لأمتعتك، لن تعطلني عن عملي.»

إنزالنا؟ لم يكن من الحكمة قبول عونه لها... فابتدأت تقول: «إن تطوعك لمساعدتي هو شهامة منك. ولكن...»

فقاطعها: «ولكن يمكنك القيام بنفسك بذلك، كما سبق وقلت، ولكن هل بإمكانك حقاً أن تحملي الصناديق على كتفيك؟»

أصرت قائلة: «سيحضر الرجال الذين سينقلون الامتعة قريباً، وسيساعدوني في انزالها من السيارة.»

أمعن النظر فيها لحظة طويلة، لقد كانت تتحدث إليه بأدب، ولكنه أحس، من وراء ذلك، بقلق في نفسها، أتراه كان ملحاحاً؟

فقال: «حسناً، ان بيتي قريب، فإذا صادفتك أية مشكلة، يمكنك أن تناديني.»

فأومأت وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة، وعجب سام للمحة من الندم لاحت له في ابتسامها للحظة وجيزة، ام أنه قد تخيل ذلك؟

ولكنه نفى هذه الخواطر من ذهنه وهو يتوجه عائداً من حيث أتى. وتبعته هي فوصلا إلى الباب الأمامي في الوقت الذي وقفت فيه الشاحنة ونزل منها رجلان، وقفا ينتظران السائق الذي كان يستدير بالسيارة.

قال لها سام بلطف: «سرعان ما ستستقرين بمساعدة هؤلاء الرجال.»

قالت: «اشكرك.» وتساءلت عما إذا بإمكانه ان يدرك انها كانت تعبر عن شيء آخر عدا عن الاعتراف بالجميل. ومن الغريب ان بدا عليه انه فهم رغبتها في عدم التقارب بينهما. لن يكون في امكانها ابداً ان تعرب له عن مقدار اعترافها بجميله هذا. وكانت تفكر في كل هذا بينما كان هو يهبط درجات مدخل منزلها، متجهاً نحو منزله. «خالي سام. خالي سام، ما أكبر هذه الشاحنة.»

أجفلت ميغان لهذا الصوت الطفولي، بينما كانت طفلة ذهبية الشعر تندفع نحو مرجها الأخضر لتلقي بنفسها بين ذراعي آرمسترونغ الذي حملها وهو يضحك، وشعرت ميغان بقلبها ينقبض وهي ترى إمارات السعادة على الرجل والطفلة معاً...

قال يمازح الطفلة: «عم تتكلمين؟ إنني لا أرى أي شاحنة.»

فغرقت الطفلة في الضحك وهي تقول: «انها هناك ألا تراها؟» ثم أشارت إلى ميغان سائلة: «من هذه؟»

أجاب: «إنها جارتنا الجديدة، تعالي وتعرفي عليها.» انزل الطفلة ثم قادها من يدها نحو ميغان، وبينما كانا يتقدمان نحوها، كانت ميغان تقلب هذه الكلمات في ذهنها جارتنا الجديدة؟ هل تعيش ابنة اخته معه؟

قال يخاطب الطفلة: «بيكا، هذه الآنسة ماكليستر.»

فمدت الطفلة عنقها تتأمل ميغان، بينما جلست هذه على درجة مدخل بابها ما جعلها في موازاة الطفلة، هذا بينما

وقفت الطفلة تنظر إليها متهيبة وقد وضعت يديها في جيبي بنطلونها وهي تقول: «مرحباً يا آنسة ماه... ماك...»

فقالت ميغان تساعدها: «ماكليستر، ولكن بإمكانك أن تدعيني باسم ميغان.»

«إن خالي سام يقول إنه لا ينبغي علي أن...» ونظرت إلى خالها.

فأخذ هو يعبث بشعرها، وشعرت ميغان بما بينهما من حنان وعاطفة، فخفق لذلك قلبها، بينما كان هو يقول للطفلة: «لا بأس هذه المرة مادام اسم ميغان الأخير صعب النطق عليك، ومادامت هي أذنت لك بذلك.»

ابتسمت الطفلة لها بخجل، فظهرت لها غمازتان لم تكونا بمثل عمق غمازتي خالها، كانت ملامحها متألقة ناضرة بعينيها الزرقاوين اللتين تشعان ذكاء وفضولاً، وتاقت نفس ميغان لملامسة شعر الطفلة الجعد، والعبث بتلك الخصلات الرائعة.

قالت الطفلة: «انني في الخامسة من عمري واذهب إلى روضة الأطفال.»

فقالت ميغان: «ما اجمل هذا.» وشعرت بدموع الشعور بالخسارة تكاد تطفر من عينيها، لقد قطعت نصف البلاد هاربة من ذكريات مثل هذه، ولكن يبدو أنها جاءت معها في رحلتها هذه ليثيرها هذا الحديث القصير مع هذه الطفلة، وإذا بالألم يتجدد وكأنه بدأ من جديد.

سمعت صوت رجل أجش يسألها: «هل انت الآنسة ماكليستر؟»

فوقفت ميغان ببطء وهي تومىء للرجل، مجيبة: «نعم، ان

بإمكانك أن تدخل الأمتعة إلى المنزل عن طريق الكاراج. سأدخل أنا أولاً وأفتح لك الأبواب.»

فقال سام لبيكا: «هذه إشارة لنا بأن ذهابنا قد حان.» وكان الرجل قد استدار عائداً إلى الشاحنة.

عندما ابتعد سام والطفلة، سمعت ميغان بيكا تسأله عما يوجد في الشاحنة، وسمعت قسماً من جواب سام. وخلال الساعة التالية التي كانت ترشد فيها الحمالين إلى حيث عليهم وضع الأمتعة، كانت افكارها تعود دوماً إلى سام وابنة اخته، وما الذي جعل الطفلة تقيم معه، وكيف بدا الاثنان في أتم راحة وصفاء معاً، وكيف أنه لم يكن يبدو عليه، وهو يتحدث إلى الطفلة، أقل ضيق أو ترفع.

وعدة مرات حاولت ميغان أن تصرف افكارها عن سام إلى ما بين يديها من عمل في تنظيم الأثاث بين الغرف، ولكن افكارها تلك كانت تعود دوماً إلى سام والطفلة وما بينهما من مودة صافية وضحكات مشتركة، هل بإمكانها أن ترى طفلاً، فلا تهاجمها الذكريات؟

* * *

خرج سام من حيث كان يغتسل في الحمام لتصافح خياشيمه رائحة شيء يطبخ.

وخلال الستة اشهر التي ورث فيها مسؤولية ابنة اخته اليتيمة وأخيها الرضيع، خلال تلك المدة تعود التمييز بين مختلف انواع روائح الطعام.

لقد تغيرت حياة سام بشكل ملحوظ بعد وصول الطفلين. ولم يكونوا جميعاً قد تكيفوا بعد في حياتهم الجديدة، ولكن

الأمور كانت في تحسن ملحوظ، كما أخذ يحدث نفسه وهو يسير نحو مصدر الرائحة في المطبخ، وقد لف رأسه بمنشفة.

كانت بيكا ومدبرة منزله إيمالين ترصان الكعك في الصينية، بينما برايان، والذي كان في الشهر العاشر من عمره، يوقع بملعقتين خشبيتين على الصينية المعدنية المتصلة بمقعده العالي، وعندما رأى الطفل خاله سام واقفاً عند عتبة الباب، توقف عن إيقاعه المزدوج هذا، فمد سام يده يدغدغه تحت ذقنه قائلاً: «يا لك من صبي، اتحدث كل هذه الضجة قبل الغداء؟»

قالت بيكا: «اننا نصنع كعكاً لأجل ميغان.»

فوقف سام خلفها ينظر إليها وقد اخرجت لسانها أثناء تركيزها على عملها، فغمس اصبعه في المزيج، وهو يضحك، ثم وضعه في فمه.

قالت إيمالين بتأنيب لطيف: «دكتور آرمسترونغ. لقد عودت بيكا على استعمال الملعقة.»

فقالت بيكا ضاحكة: «عليك الآن أن تعودي خالي سام. ايمكننا ان نأخذ الحلوى إلى ميغان بعد الانتهاء منها مباشرة؟»

فقالت ايمالين وهي تضع الكعك في الفرن: «إذا كان هذا يناسب جدول اعمال خالك لهذا اليوم.»

فسألته بيكا: «ايمكننا ذلك؟»

أجاب: «لِمَ لا؟ ليس لدي الكثير من العمل، اليوم.» هذا إلى أنه كان يريد أن يرى ميغان.

قالت ايمالين وهي تغلق باب الفرن ثم تستقيم واقفة:

«اننا جميعاً بحاجة إلى عطلة نمرح فيها، أليس هذا ما تقوله أنت دوماً؟ ولا تقلق، فقد ضاعفت كمية الكعك لكي تأكل أنت الأطفال.»

فوضع سام ذراعه حول كتفيها العريضتين وهو يقول: «انك كنز، يا إيمالين.»

فقالت وقد احمر وجهها: «هيا، ان أول دفعة من الكعك ستكون جاهزة بعد ربع ساعة، وهذا يترك لك وقتاً كافياً تسرح فيه شعرك.»

فقالت بيكا: «وأنا أيضاً، أريدك أن تسرح لي شعري.»

فرفع حاجبه ناظراً إلى شعرها، ذلك أنه لم يكن يحسن تسريحه عندما كانت تطلب منه ذلك في المناسبات الهامة. فكانت محاولاته في تخليص شعرها المتشابك من بعضه تجعلها تشكو وهي تتلوى ألماً. ولكنها الآن، رغبة منها في زيارة ميغان، تبدو مستعدة لتحمل كل هذا.

خرجا بعد ذلك بنصف ساعة، يحملان الكعك، ليكتشفا أن ليس ثمة أثر للشاحنة ولا لسيارة ميغان، وعندما قرعا بابها لم يجب أحد.

سألته بيكا: «أين تراها ذهبت؟»

فأجاب: «لا أدري.»

لقد استغرق انتقالها إلى المنزل أقل من ساعة، يبدو أن السيدة سريعة الحركة.

فقالت بيكا بصوت فيه شيء من الخوف: «وهل ستعود.»

انحنى حتى أصبح في موازاتها ثم احتضنها وهو يقول مطمئناً: «نعم، انها ستعود، ربما ذهبت فقط إلى محل تجاري.»

فزمت بيكا شفتها السفلى استياء، وقالت: «أرجو أن لا تشتري كعكاً من هناك.»

فقال: «حسناً، حتى ولو اشترت كعكاً، فهو لن يكون بمثل جودة كعكنا هذا.»

فقالت: «هذا صحيح. أنا وإيمالين نصنع احسن الكعك.»

فقال: «هذا صحيح، دعينا الآن نعد إلى البيت لنتناول الغداء، ثم نعود فيما بعد لنرى إذا كانت ميغان قد عادت إلى بيتها.»

«نعم، ولكنني أحب أن اتناول غدائي في المدخل أمام الباب.»

وبهذا، سيكون في امكانها أن ترى ميغان عندما تعود، كما أدرك سام، وهو ينظر إليها متأملاً، وهو يفكر كيف أن بضعة دقائق مع ميغان قد اسرتها بهذا الشكل، ولكنه اعترف بأنه هو أيضاً وجد المرأة اكثر من مجرد عادية.

واخذ يتساءل، وهو يساعد ايمالين في تهيئة غداء بيكا امام الباب، عما إذا كانت ميغان قد جاءت إلى مدينة كنساس آملة في بداية جديدة لحياتها. احياناً يكون في هذا أول خطوة في طريق الشفاء، إذ يترك المريض خلفه المكان والأشخاص الذين كانوا السبب في ما حصل معه.

وشعر بغضب جامح لفكرة أن هناك من سبب لها الألم، أخذ يمعن فكره في كل هذا، بعد الغداء. كان، بصفته طبيباً نفسانياً، يحرص دوماً على أن يكون حيادياً مع مرضاه، ولكن الغريب أنه لم يستطع ذلك بالنسبة إليها رغم أنه لم يتكلم معها سوى دقائق معدودات، وتملكته الحيرة من

مشاعره، كان ثمة انجذاب... وكان فورياً وقوياً، رغم أنه لم يجد ذلك معقولاً.

لقد اعجبته جارته الجديدة وشعر بالرغبة في معرفتها. ولكن الشيء غير المعقول في ذلك، هو رغبته العنيفة في حمايتها، ومحاولة مسح آلامها، ليس بالطريقة التي يستعملها الطبيب النفساني مع مرضاه، ولكن بطريقة الصديق، كان ذلك يسبب له اجهاداً مضاعفاً كما كانت مشاعره تتدفق بسرعة جعلته يشعر بعدم الإرتياح.

أيقظه من خواطره هذه، انغلاق الباب الأمامي بعنف، ليسمع وقع خطوات بيكا الخفيفة تتجه نحوه، وهي تهتف بلهفة: «لقد عادت ميغان.» وكانت الطفلة تحمل ورقة بيد، وقلماً في اليد الأخرى وهي تتابع: «سأحضر الكعك.»

فقال يوقفها عن الاندفاع خارج الغرفة: «ما هذا؟ ماذا تحملين في يدك؟»

فرفعت الورقة تريه إياها وهي تقول بزهو: «انها صورة لأجل ميغان.»

لأجل ميغان. ودهش وهو يشعر بألم بالغ الضآلة إذ يراها تشاركه ابداعات هذه الطفلة... وليس معنى هذا أن جدران غرفته لا يزينها العديد من هذه الصور... خمس عشرة واحدة على الأقل، هذا إلى الكثير على جوانب الدرج، واكثرها من أوائل ما كانت تصور. وكان عرضها يسبب لها الألم الشديد. لقد كان ذلك جزءاً من علاجها، وسيلة لجعل الطفلة تتخلص من حزنها ومخاوفها، فما لم يكن بإمكانها التعبير عنه بالكلمات، يمكنها، احياناً، أن تضعه على الورق.

كان في هذه الصورة الأخيرة، سعادة وأشعة شمس، ولكنه كان يعلم أن بيكا مازالت هشة كثيراً. كان يرجو أن تتمكن ميغان، وهي نفسها رسامة، من أن ترى جمالاً في رسم منزلين غامضي المعالم وأربعة اشخاص يتكئون على العصا، وكلباً بثلاث سيقان.

قال لابنة أخيه: «هيا بنا، سنحضر الكعك ذاك.»

فاندفعت الصغيرة في الممر متجهة نحو المطبخ حتى كادت تصطدم بإيمالين التي لاحت على شفتيها ابتسامة وهي تناول سام إناءً مملوءاً بالكعك.

وعادت بيكا تركض مخترقة غرفة الجلوس نحو الباب الخارجي لتخرج منه بلمحة، وتبعها سام بخطوات اكثر هدوءاً، وهو يتجنب الدوس على الاقلام الملونة المبعثرة على أرض الشرفة الخارجية، راجياً ان لا تكون رحلته هذه إلى بيت ميغان فكرة سيئة. فقد كانت بيكا شديدة اللهفة، وكون أن ميغان تصرفت نحو بيكا بطيبة وعطف، لا يعني انها ترحب بصحبتهما. وجذب نفساً عميقاً بينما كانت بيكا تمط قامتها نحو الجرس لتقرعه.

كان يدرك أن نوع استقبال ميغان لعرض الصداقة هذا منهما، يتوقف عليه الكثير من سعادة بيكا، لم يكن يريدها أن تردهما خائبين... وكانت اسبابه لذلك خاصة تماماً، لقد أدرك ذلك فجأة. وتنفس بعمق يهدىء بذلك من سكينة نفسه المتعكرة.

ما أن ثنت ميغان الملاءة حول زاوية فراش السرير حتى سمعت صوت جرس الباب، فاستقامت واقفة، محاولة أن تقنع نفسها بأنه جار آخر رآها فجاء يرحب بها، ولكن ما أن

نظرت من خلال النافذة الصغيرة الموجودة في الباب الخارجي، حتى رأت سام واقفاً هناك.

فتحت الباب وسمعت صوتاً صغيراً يقول بلهفة: «لقد احضرنا كعكاً.» فنظرت ميغان إلى أسفل لترى بيكا واقفة بجانب خالها... طفلة ذات وجه بريء ضاحك مشرق بالأمل. وكان ثمة نمش منتشر على أنفها ووجنتيها.

فرددت بغباء: «كعك؟»

«نعم، وقد رسمت صورة لأجلك.» ومدت لها يدها بالورقة المصورة.

بينما أخذت ميغان تحدق إلى الصورة، أخذ سام يراقب ما كان يرتسم على وجهها من مشاعر، فمن السرور إلى الألم ومن ثم إلى الذعر، لقد كان الانطباع الذي سبق وأخذه عنها، صحيحاً، فقد كانت تألمت، وبشكل عنيف. وشعر برغبة في التسرية عنها، مزيجة برغبة بحماية ابنة اخته الصغيرة، ان بإمكانه أن يرى أن ميغان تعاني من مشاعر أثارتها في نفسها هذه الصورة ولكنه كان يشك في امكانه حمل بيكا على تفهم الوضع والتسامح فيما لو رفضت ميغان أخذ الصورة. فقال: «ربما ليس لدى ميغان مكان تعلق فيه الصورة يا حبيبتي.»

سمعت ميغان كلمات سام، من خلال موجة المشاعر التي غمرتها... كانت كلمات قصد بها صون مشاعر الطفلة المرهفة، فانحدرت نظراتها لترى وجه بيكا الصغيرة قد ابتدأ بتغضن.

ووجدت نفسها تقول: «إن لدي مكاناً مناسباً تماماً لمثل هذه الصورة الجميلة.» لم يكن بإمكانها أن تدع الطفلة تتألم

مهما يكن الثمن الذي سيدفعه قلبها لذلك، ورغم أنه لم يكن في نيتها دعوة سام إلى منزلها، فقد وجدت نفسها تقوم بذلك. وكانت تقنع نفسها بحزم، وهي تسير أمامهما إلى المطبخ، بأن ذلك من أجل بيكا فقط. والصقوا الصورة على الثلاجة بلاصق كانت قد اخرجته من بين الأمتعة لتوها.

قالت: «اشكرك يا بيكا، إن هذا بالضبط ما كان المطبخ بحاجة إليه.»

ما أن وضع سام إناء الكعك على المنضدة، حتى أخذ ينظر حوله، ليرى أنه لم يكن هناك مائدة ولا كراسي، كان هنالك كرسي هزاز واحد في الطريق المؤدي إلى غرفة الجلوس أجلست عليه دمية محشوة تمثل أرنباً اغبر اللون. سألتها بيكا: «هل ذهبت إلى الدكان؟»

فأجابت ميغان مقطبة جبينها: «كلا، لماذا تسألين؟»

فقال سام موضحاً: «لأننا جئنا قبل الغداء فلم نجدك، فاخبرتها انك ربما ذهبت إلى الدكان.»

«كنت اجري اتصالاً هاتفياً أسأل عن سبب عدم وصول الكهرباء إلى المنزل بعد، فقالوا انهم ضيعوا الطلب.»

فقال سام وقد ابتدأت خطة تتكون في ذهنه: «انك إذن من دون طاقة كهربائية. إلى متى سيستمر هذا؟»

«حتى يوم الثلاثاء، انهم لا يعملون أثناء الإجازة الأسبوعية كما أن يوم الاثنين محجوز بأكمله.»

«إذن، أرى أن تتناولي العشاء معنا.»

فهتفت بيكا مشرقة الوجه: «نعم.»

قالت لبيكا برقة: «كلا، لا أحب ان اثقل عليكم.»

فقطبت الصغيرة جبينها: «ما معنى هذا؟»

نظر سام إلى ميغان، قائلاً: «هذا هراء، فلا يمكنك أن تطبخي كما أنك لا يمكنك أن تحفظي الحليب الذي يغمس فيه الكعك، حيث أن الثلاجة لا طاقة فيها.»

فقالت بيكا: «نعم، عليك أن تغمسي الكعك بالحليب.»

عاد هو يقول: «تناولي العشاء معنا هذه الليلة.»

فنظرت بيكا إليها متوسلة. ورأت ميغان نفسها قد ابتدأت تفقد السيطرة على الوضع. من تراها تخادع؟ لقد فقدت هذه السيطرة منذ رفعت بيكا إليها الرسم تريها إياه... وكانت الأرض ثابتة تحت قدميها، إلى ان نظرت إلى تلك العينين الزرقاوين لهذه الطفلة ذات الخمس سنوات فإذا بالأرض تلك، تهتز.

«لا بأس.» انطلقت الكلمات من بين شفتيها قبل أن تتمكن من استعادتها، ولم يبق لها سوى الرجاء في أن لا تقودها خطاها هذه، في طريق الأحزان من جديد.

الفصل الثاني

كانت ميغان تسير نحو منزل سام، وهي تحاول تعنيف نفسها مما يدور في ذهنها من مشاعر. لقد كانت هدفاً سهلاً لجاذبيته.

كان معظم السبب في انجذابها نحوه، التفهم الذي رأته فيه، ومراعاته لمشاعر الآخرين كما رأت من إحضاره لها كعكاً ثم دعوته لها لتناول العشاء في بيته. لقد كانت تشعر بعجز بالغ وهي ترى نفسها وحيدة في هذه المدينة الجديدة. لقد انتقلت إلى هنا آملة في أن تجد من السعادة ما يملأ فراغ حياتها، وقد ابتدأت فعلاً بذلك ولهذا لن تسمح لشيء بأن يعرّض انجازها هذا للخطر.

لقد حاولت، بعد تركه لمنزلها أن تجد سبباً معقولاً تستند إليه في قبولها عرضه هذا، ولكن الحقيقة هي أنها تريد أن تكون معهما. فقد طالت وحدتها.

كان في دعوته لها إلى العشاء شهامة الجار.

رأتها بيكا وهي تصعد درجات منزلهم الخشبية، فصرخت وهي تندفع داخلة إلى المنزل: «ميغان هنا.»

فابتسمت ميغان لحماس الطفلة هذا، ولكنها وهي ترى نفسها في هذا المنزل، ترددت خطواتها. ذلك أنها أدركت الآن أنها لم تكن تريد في قدومها إلى هنا، سوى رؤيته مرة أخرى، ولكن قبل أن تتردد فتعود أدراجها هاربة، كانت بيكا قد أمسكت بيدها تجرها داخلة بها المنزل.

كانت غرفة الجلوس فسيحة ذات طابع رجالي، ولكن كانت هنا وهناك أشياء تخص الأطفال... فهنا كرسي صغير ومنضدة بعثرت عليها كتب الأطفال، وفي الزاوية صندوق طافح بالألعاب. وعلى أريكة هناك، كانت دمية ذات جدائل شقراء.

دخل سام وفي يده منشفة المطبخ يمسح بها يديه، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة ترحيب دافئة برزت معها غمازتاه.

أدركت ميغان أن عليها أن تستدير نحو الباب، هاربة، ولكن قبضة بيكا القوية سمرتها مكانها. بينما تبددت إرادتها إزاء ابتسامة سام.

قالت بيكا وهي تغرق بالضحك: «خالي سام يطهو العشاء. والمطبخ الآن غارق في الفوضى، ومن حسن الحظ أن ايمالين ليست هنا لترى ذلك.»

فعبس سام في وجهها هازلاً: «ليس من المفروض أن تخبريها.»

فعادت بيكا إلى الضحك، بينما ضحكت ميغان وهي تسأل: «من هي ايمالين؟»

أجاب سام: «إنها مدبرة منزلي. وهي الليلة في إجازة.»

«وأنت الذي يعمل مكانها؟» وابتسمت لفكرة انشغاله في المطبخ طاهياً العشاء لها ولإبنة أخته. كيف يكون الأمر لو أن هذا المشهد يصافح بصرها في بيتها كل ليلة؟ مزيجاً بالدفء والترحيب؟ وتساءلت عما إذا كان هذا سيحدث لها يوماً من الأيام. ثم إذا بوجه مستدير لطفل رضيع يحبو على يديه وركبتيه وقد تلطخ وجهه بالشيكولاتة. كان شعره بنياً ناعماً، بينما عيناه الزرقاوان الكبيرتان تنظران إلى ميغان باهتمام وهو يثرثر بمرح.

تلاشت المناظر بأجمعها من أمام عيني ميغان اللتين شردتا. كانت بيكا تقول شيئاً لم تفهمه ميغان. ذلك أن ذاكرتها قد عادت بها إلى الماضي، إلى أيام كانت أكثرها لا يمكن احتمالها. أيام كلفتها كل ما في طاقتها لكي تستطيع تجاوز تلك الأيام والليالي التعسة... لقد خسرت الكثير. وحاولت أن تلقي بالماضي خلف ظهرها، ولكنها لم تنجح إلى الدرجة التي كانت تتوقعها.

توقفت بيكا أثناء تقديمها برايان لميغان ورفعت بصرها إليها، وأدرك سام أن ميغان لم تسمع كلمة مما قالته بيكا لها. كانت تحدق إلى برايان وقد شحب وجهها وفاضت عيناها بالألم. لقد تحول ذلك الاهتمام وتلك الجاذبية اللتان كان لاحظهما لحظة دخولها، تحول الآن إلى ألم وعذاب. كل المشاعر التي تملكتها ظهرت على وجهها وفي عينيها الجميلتين.

تقدم نحوها يخاطبها: «ميغان.»

لم تجب. وبدا عليها وكأنها ستندفع هاربة من الباب، إنه لا يريد أن يجعلها تقوم بذلك، ولكن كيف بإمكانه منعها؟ وشعر وهو يراها تتألم، بعجز كلي.

«بيكا، خذي برايان إلى غرفته وحاولي أن تلهيه بلعبة ما...»

ولا بد أن بيكا قد شعرت بانشغال بال سام. فهبطت على يديها وركبتيها وأخذت تغري برايان بالذهاب معها إلى غرفته.

«ما هذا يا ميغان؟» وقف أمامها منتظراً منها أن تراه. كانت عيناها تائهتين وكأنها كانت ضائعة بين

ذكريات تعسة. وتابع هو قائلاً بمزيد من الحدة: «ميغان.»

فاخترقت حدة صوته ذكرياتها تلك، فأدركت مبلغ ارتباكها لرؤية الطفل. كان كل ما استطاعت التفكير فيه هو جوي... طفلها... طفلها الذي لم يكتب لها أن تحمله بين ذراعيها قط... كم كان هشاً وضئيلاً... ورائع الجمال، لقد كانت حياته قصيرة جداً.

رأت الاهتمام مرتسماً على ملامح سام ولكن لم يكن في إمكانها أن تخبره عن خسارتها الفادحة، تلك. كما أنه ليس في إمكانها البقاء للعشاء. ليس هذه المرة على كل حال ذلك أنه ليس في إمكانها الصبر على ما يثير ذكرياتها. وهكذا ألقت باعتذار مختنق، وهي تندفع خارجة من الباب.

فتصاعد من بين شفتيه سباب خافت. ليس بإمكانه أن يدعها تذهب... خصوصاً وألمها كان واضحاً. إن عليه أن يقوم بشيء ما... إنما ما هو هذا الشيء؟ لم تكن لديه فكرة من أين يبدأ.

دخلت بيكا غرفة الجلوس وخلفها برايان على بعد خطوات. وما أن انغلق الباب خلف ميغان، حتى رفعت بصرها إلى سام وقد بان على وجهها الحيرة والألم.

سألته: «إلى أين ذهبت ميغان؟»

فقال وهو يتخلل شعره بأصابعه: «ذهبت إلى بيتها، إنها تشعر بوعكة.» حمل الطفل وسار به إلى غرفة الجلوس حيث وضعه في مقعده وهو يقول للصغيرة: «هل يمكنك البقاء بجانب برايان ومراقبته إلى أن أذهب فأطمئن على ميغان؟»

فأومأت برأسها قائلة: «نعم، وسألاعبه حتى لا يبكي.»

«هذا حسن، شكراً.»

اندفع خلف ميغان، فلحق بها عند بابها. وكانت الدموع تغسل وجنتيها وهي تحاول إدخال المفتاح في الباب فأمسك بيدها، فقالت: «أرجوك يا سام... دعني فقط...»

«كلا، فأنا أريد أن أعرف ما هناك.» لم يكن مسؤولاً عنها إذ هي لم تسأله المعونة، ولكنه كان يريد أن يعلم سبب هربها منه.

أخذ المفتاح من يدها المرتجفة، وفتح الباب ثم أشار لها إلى غرفة الجلوس.

وقفت في وسط الغرفة وقد عقدت ذراعيها فوق صدرها بينما الدموع تغسل وجهها.

قال لها برفق: «حدثيني عن أمرك.»

فهزت رأسها وهي تشهق. لم تستطع أن ترى عينيه بوضوح، ولكنها سمعت لهجة الاهتمام في صوته. كانت بحاجة إلى ذلك الاهتمام. إلى من يهتم بها كل تلك الأيام والليالي المليئة بالآلام والاحزان لما فقدته ولما لن يكون بإمكانها الحصول عليه. كان من السهل عليها أن تسلم بالأمر، ولكن الحكمة كانت تحول بينها وبين ذلك. ألم تتعلم أن من يعطي الحب يستطيع أيضاً أن يستعيده ويرحل؟ أن تخبر سام عن ماضيها يعني أن تقرّبه منها... أن تدع نفسها معرضة للألم.

قال سام بحدة: «إن بيكا بحاجة إلى أن تفهم سبب هربك، فهي تحبك كثيراً. وما حدث سيؤلمها إلى حد كبير.»

«إنني آسفة...»

فتنهد قائلاً: «الأسف وحده لا يكفي.» ورقّ صوته وهو

يتابع قائلاً: «ميغان، لقد فقدت بيكا والديها، منذ ستة أشهر وذلك بحادث سيارة.»

فشهقت ميغان. ها إن بيكا عرفت ما هي الخسارة مثلها تماماً... وفي مثل سنها الحدث هذا. أن تخسر كلا والديها... كان في إدراكها مدى آلام هذه الصغيرة ما جعلها ترتعش ويزيد في آلامها.

ما كان لها قط أن تقبل دعوة العشاء هذه، ولكنها لم تستطع رفضها. كانت تريد أن تجلس مع سام وإبنة أخته. وكانت نتيجة ذلك أن سببت لتلك الطفلة ألماً إضافة إلى ما سبق وعانته.

سألته: «والطفل؟»

«إنه أخو بيكا، لماذا ساءتك رؤيته إلى هذا الحد؟» ألقى عليها هذا السؤال رغم شعوره بأنه يعرف الجواب.

وعندما لم تجب، سألها بلطف: «هل كنت فقدت طفلاً؟»

فأومأت برأسها، وبدا كما لو أنها كانت تتوسل إليه أن يترك الأمر عند هذا الحد وأن هذا كل ما بإمكانها أن تبوح به. إنما بعد أن وضع في يدها منديلاً تدفقت الدموع من عينيها وهي تقول: «لو أنه بقي على قيد الحياة، لكان في مثل سن برايان، فقد ولد قبل أوانه بعشرة أسابيع.» قبل أوانه بكثير. إنه لن يضحك أبداً. ولن يبكي مرة أخرى. إنها لن تضمه إلى صدرها أبداً ولن تهدهده لكي ينام أو تسير به في أرض الغرفة في الليل.

«آه، يا ميغان...» لم تكن الكلمات وافية، ولكنه لم يستطع أن يقول شيئاً آخر... فقد شعر بغصة في حلقه، وفي قلبه إذ يدرك ما سبق وعانته.

قالت بصوت متهدج: «كان جوي ضئيل الحجم، لم تكن رئتاه مكتملتي النمو. لقد جربوا معه كل شيء وكانت الأنابيب مغروسة في كل مكان في جسمه الصغير.»

وتنهد سام حين توقفت شهقاتها: «ميغان. يا ليتني كنت أعلم.»

«ما الذي كان بإمكانك أن تفعل؟»

فشعرت به يهز كتفيه قائلاً: «لا أدري، ربما كنت سأعدك لهذا، على الأقل.»

هل كان بإمكان أي شيء أن يبعدّها لهذا؟ منذ فقدها لطفلها وهي تتجنب رؤية أي طفل سواء كان رضيعاً أم يحبو. أما الأطفال الأكبر من هذا، فكانت تجد صعوبة بالغة في رؤيتهم أو التعامل معهم. ولكن رؤيتها لبرايان الذي كان في مثل سن طفلها لو أن هذا الأخير ما يزال حياً، كانت أصعب عليها مما توقعت.

«إنني آسفة يا سام. ولكن ليس بإمكاني تناول العشاء معكم.»

كان سام متفهماً لمشاعرها، ولكنه مع هذا، لم يستطع أن يذهب تاركاً إياها في مثل هذه المعاناة. لا يمكنه أن يذهب. لقد كانت رغم ضعفها وهشاشتها، قوية قادرة على الاحتمال. إنه يشعر بانجذاب نحوها لا يدري إلى أين سيقوده... ولكنه كان يسير في ذلك بشكل لا إرادي.

ابتدأ يقول: «سنتمكن من التحدث غداً...»

اجابته: «كلا.» كان هناك أسباباً كثيرة... منها واحد ليس بإمكانها أن تخبره عنه.

وشعر سام بالقلق لرفضها الحازم هذا، فقال بحذر: «إنك

بحاجة إلى التحدث مع شخص ما. إنني أدرك أنك ربما لا تشعرين معي براحة تامة... ولكن بإمكاني أن أعطيك أسماء عدد من زملائي...»

«من زملائك؟»

«إنني طبيب نفساني.» وسكت محاولاً رؤية ردة الفعل عندها تجاه مهنته هذه، وقطبت جبينها. أهي علامة سيئة؟ لم يكن متأكداً، ولكنه تابع يقول: «كنت أفكر فيما لو كنت تريدين التحدث إلى شخص ما... حسناً، ما دمت حديثة العهد في مدينة كنساس هذه، فربما لا تعرفين أحداً لتذهبي إليه. لقد كنت أنا بحاجة إلى شخص ما لأجل بيكا ولأجل نفسي أيضاً.»

«لأجل نفسك.»

فأومأ يجيبها: «نعم، إن والدة بيكا كانت شقيقتي، وكانت أصغر مني بخمس سنوات، وهكذا كنت أشملها دوماً برعايتي في مرحلة نموّنا، كما أن زوجها كان صديقاً حميماً لي.»

فقالت بهدوء: «لا بد أن فقدهما معاً في وقت واحد كان فاجعة كبرى بالنسبة إليك.»

«نعم. احياناً تكون الحياة في منتهى القسوة. لا أفهم كيف تنتهي حياة شخصين طيبين متحابين، بهذا الشكل.»

«ولا حياة الأطفال الأبرياء.»

«نعم. إن خسارة كهذه لا يستطيع أن يتحملها أحد، ولكن... حسناً سأعطيك إذا شئت، عناوين بعض أصدقائي ممن بإمكانهم أن يساعدوك على اجتياز المحنة.»

هزت رأسها نفياً فقال: «قولي إنك ستفكرين بذلك، على

الأقل.» إذا كان هذا كل ما بإمكانها أن تعطيه الآن فسيحاول أن يقبل به راضياً، محاولاً أن يتوقف عن الشعور بالقلق لأجلها.

كان أول ما تبادر إلى ذهن ميغان، هو الرفض كما سبق ورفضت رؤية مثل هؤلاء الأطباء في بوسطن. لم تستطع أن تتكلم عن السبب الذي جعل إبنها يولد قبل أوانه. موت جوي وما تبع ذلك... جنازته... طلاقها، العملية... كل ما كانت تطلبه هو أن تترك بمفردها. ولكنها جاءت إلى هنا لكي تشفي جراحها.

«لا بأس. سأفكر في الأمر. عليك أن تعود إلى أسرتك.»

أسرة؟ إنها لن تحصل على أسرة خاصة بها أبداً لن يستطيع أحد أن يدرك كم تحطمها هذه الفكرة.

فقال ببطء: «ربما أنت على حق. إن بيكا سيتملكها القلق.»

فسألته: «ما الذي ستقوله لها بشأني؟»

أجاب: «الحقيقة. وهي ستفهم الوضع.»

أومأت برأسها. إن الرجل يتصرف بشكل رائع، فهو متفهم كريم النفس، كانت تفكر في هذا وهي تسير معه نحو الباب ثم تغلقه خلفه. كان أروع من أن يكون حقيقياً. وشيء كهذا لا يمكن أن يدوم.

أسندت ظهرها إلى الباب قبل أن تدرك أن منديل سام ما يزال في يدها، وهذا بشير بأن ما حدث بينهما لم ينته.

إنها ستراه مرة أخرى، كيف بامكانها مواجهة ذلك؟ كيف بامكانها تجاهل انجذابها إليه؟

أخذت تجفف دموعها بالمنديل لتشعر، بعد ذلك، بروعة

ما شعرت به من راحة وهو يمسك بها، لقد خفف ذلك، حالياً على الأقل، مما تشعر به من ألم، وحزن، وشعور بالوحدة والفراغ.

وخلال كل ذلك، كانت تشعر بأنه مصمم على ألا يدعها ترحل، ولكن لم يعد أي شيء من هذا يشعرها بالسعادة، بعد الآن، فقد دفنت تلك المشاعر مع طفلها.

بقيت هذه الذكرى في خيالها وهي تجلس على الكرسي الهزاز، محتضنة الأرنب الرمادي إلى صدرها. وأخذت تنظر من النافذة إلى أضواء الشارع وهو يشتعل واحداً بعد الآخر. وفي كل واحد منها، كان ثمة وعد بأن الحياة تتجدد يوماً بعد يوم.

* * *

في عصر اليوم التالي، عادت ميغان إلى بيتها بعد أن أمضت فترة في السوق إشترت فيها بعض الضروريات، من أطعمة لا تحتاج إلى الحفظ في ثلاجة وذلك إلى حين مجيء الطاقة الكهربائية إلى بيتها نهار الثلاثاء، وبعض الوسائد لأريكة غرفة الطعام، فقد كانت هذه مكانها المفضل في المنزل.

عندما دخلت الطريق المؤدي إلى المنزل، شاهدت بيكا تسير الهوينا في المرج المؤدي إلى بيتها، وفي يدها صندوق، فأبطأت ميغان من سير السيارة، ثم تنفست بعمق. كانت تعرف أن هذه اللحظة آتية لاشك فيها. ولكنها ما زالت غير مستعدة لمواجهة الفتاة الصغيرة. ماذا بامكانها ان تقول لبيكا؟ الحق مع سام، إن كلمة آسفة لا تكفي أحياناً.

أدخلت السيارة إلى الكاراج، ثم تنفست بعمق مرة أخرى، وهي تخرج لملاقات الصغيرة، وإذ نظرت بيكا إليها بجد شعرت ميغان بأنها ستكون أفضل حالاً لو أن الصغيرة عادت تضحك وتمرح من جديد.

قالت: «بيكا، إنني شديدة الأسف بالنسبة لليلة الماضية.»

فأجابت الطفلة: «لا بأس، لقد أوضح لي خالي سام الأمر.» ومدت يدها بالصندوق إلى ميغان، وتابعت: «إنه يحوي أوراقاً وأقلاماً ملونة.»

فشعرت ميغان بسرور داخلي بعد إذ علمت بأنها لم تثبط من عزيمة الطفلة تماماً. كان هذا يعني الكثير بالنسبة إليها. ذلك أنها شعرت برباط يشدها إليها منذ علمت بأنها فقدت والديها... كان رباطاً لم تشعر بمثله بينها وبين أحد آخر، منذ شهور.

سألتها ميغان: «هل رسمت صورة أخرى لثلاجتي؟»

«إن هذا لك لكي ترسمي أنت صوراً.»

«أنا؟»

فأومأت الطفلة: «عندما مات الماما والبابا، كنت شديدة الخوف والحزن، فعلمني خالي سام كيف أرسم صوراً عن كل ذلك.»

«ترسمين عن ذلك؟» وانحبست أنفاس ميغان، كيف ستتمكن من تخطيط موت طفلها وما تلا ذلك؟

فأومأت بيكا مرة أخرى: «يقول خالي سام انني إذا رسمت الأشياء المخيفة والمحزنة، فذلك يخفف عني، وهذا ما حدث لي فعلاً.»

فعجبت ميغان لهذه العلاقة الرائعة بين بيكا وخالها، كان لديه أحزانه هو الآخر، مثل إبنة أخته. هذا بالإضافة إلى أن دخول طفلين في حياته كرجل اعزب، لم يكن بالأمر السهل. ولكنه استطاع تدبير الأمور بشكل ما، وبنتيجة ممتازة.

وتمنت ميغان لو كان لديها أحد، هي أيضاً، يساعدها في محنتها. ذلك أن والديها لم يتفهما ما كانت تعاني، لقد انهار عالمها حولها، ولكنهما توقعا منها أن تلملم شتات نفسها، ثم تتابع حياتها وكأنما لم يحدث لها شيء.

تابعت بيكا: «على كل حال، فكرت في أنه لو لم يكن لديك ورق وأقلام، فبامكانك أن تستعملي ما عندي إن لديّ الكثير.»

أخذت ميغان تحدق فيها. لم يترك عمل أي شخص آخر في نفسها أثراً يماثل الأثر الذي تركته لمسة الحنان والإهتمام هذه... إذ تأتي فتاة صغيرة لتقدم إليها العون والسلوى، بينما هي نفسها تعاني من ألم فقدان أبويها. لقد حاول آخرون ذلك معها، ولكنها أغلقت قلبها دونهم. حتى أبويها. فكيف استطاعت بيكا أن تخترق الحواجز؟

حاولت ميغان أن تعبر عن شكرها، بالكلمات، ولكن غصة في حلقها منعتها من ذلك، وإذا بصوت سام يأتي من الباب الخلفي لمنزله ينادي بيكا، بينما كان بكاء برايان يتصاعد من خلفه.

فهزت الفتاة كتفيها: «عليّ أن أذهب، فيوم الأحد هو إجازة إيمالين، وبرايان يبكي دوماً. خالي يقول انه في طور التسنين إلى اللقاء.»

إبتعدت بيكا تاركة ميغان وحدها في الفناء، حاملة صندوق الأقلام والورق.

ما الذي ستفعله بالنسبة إلى الطفلة؟ إنها لا تستطيع أن تنكر دخولها إلى قلبها، ولم تكن ميغان تريد أن تؤلمها، ولكن رؤيتها للطفلة، تعني رؤيتها لسام.

ماذا سيحدث لها إذا انتهت علاقتهما؟ كانت تتساءل عن ذلك وهي تنقل مشترياتها إلى داخل المنزل، كلا، إنها لن تستطيع المخاطرة مرة أخرى، فقد كانت قررت، عندما تركت بوسطن، أن تبتعد عن أية ارتباطات أخرى.

لم تشأ أن تسكن مرة أخرى، في شقة من طراز شقق العازبين وذلك للاقلال، قدر الإستطاعة، من فرص تكرار نفس الأخطاء. كان هذا أول ما فكرت فيه، ولكن كان عليها أن تدرك أن شراء منزل خاص يعني أنه سيكون لها جيران لديهم أطفال ستراهم أثناء لعبهم خارج منازلهم، وتسمع أصواتهم.

وبينما كانت تضع المشتريات في أماكنها، أخذت تفكر في البحث عن منزل آخر، إن بإمكانها أن تؤجر هذا المنزل شهرياً. وسيكون في هذا استثمار جيد لنقودها.

ولكن، لن يكون في امكانها الهرب دائماً، وعندما وضعت الوسائد على الأريكة، علمت أن هذا المكان هو بيتها الآن. وهكذا جلست تنظر من النافذة إلى البيوت وظلال شجر السنديان، وإلى المروج الخضراء الخصبة، إن السكون والأمان يخيمان على هذا المكان، لقد شعرت بذلك في نفس اللحظة التي أرتها بها جوان هذا المنزل، طائفة بها بين المنازل.

لقد مكثت وقتاً طويلاً هاربة في البلاد، وآن لها أن تستقر، أن تجد وقتاً تبني فيه مستقبلها، وستبدأ بانشاء حديقة، نعم إن هذه الفكرة تخفف من العبء الذي تحمله، إنها ستذرع البذور وتراقب مراحل نموها. ليس الخضار فقط بل الأزهار ايضاً. إن المنزل بحاجة إلى أزهار، وورود أيضاً، وربما ليس أمام المنزل فقط بل خلفه أيضاً على طول السياج.

إن بإمكانها أن تجد هنا نوعاً من الإطمئنان، رغم أن في جوارها يوجد أكثر الرجال الذين عرفتهم، جاذبية، وأسرته الصغيرة، إلى كل مشاعر الألم والفراغ الذي يجلبه رؤيتها لأطفال يلعبون.

وفي حمام منزلها، وضعت ميغان صندوقاً ثم اخرجت منه رزمة من الورق... رسومات بألوان مائية، وأغاني أطفال بسيطة. كتاب أطفال عن الكلاب والقطط والألوان. كانت هناك أشياء أخرى ولكن هذه كانت مختاراتها، كانت قد صنعتها لطفلها... لجوي. وهو لن يراها أبداً، ولن يجلس قط على ركبتها ليشير باصبعه إلى الصور.

كانت احلامها كثيرة إنما لم يتحقق واحد منها، وقد حان الوقت للتحرر من حزنها وانشاء حياة جديدة لنفسها، إنها ستحول ابداعاتها في هذا الاتجاه، فترسم صوراً بالألوان المائية لغرفة الطعام، وتنشىء حديقة يحسدها عليها كل مزارع.

وجدت في الداخل حقيبة وردية جميلة بداخلها بعض مناديل الورق، فوضعت الكتاب في داخلها مع بطاقة كتبت عليها (إلى بيكا، من ميغان).

حملت الحقيبة بيدها، وتوجهت مترددة نحو منزل سام، ثم صعدت درجات شرفة الباب، كان برايان ما يزال يئن باكيا بهدوء، ولم تستطع ميغان المخاطرة برؤية الطفل مرة أخرى، أو بيكا، أو سام، خصوصاً سام الذي أمضت الليل متشوقة إلى سماع كلماته المواسية.

سمعت صوت سام العميق يحدو للطفل، وتصورته يحمل الطفل... رائع الجانبية، وبمنظره ذاك، ورقة صوته الغني النبرات... ستضيع حتماً.

علقت الحقيبة بصندوق البريد، ثم عادت الى بيتها لتبدأ حياتها من جديد.

الفصل الثالث

تنهد سام وهو يملأ لنفسه كوب عصير، ثم يتوجه به نحو غرفة الجلوس حيث تمدد على الأريكة بعد أن خلع حذاءه، ثم شمل ما حوله من فوضى، بنظرته، كانت لعب برايان متناثرة في كل مكان، هنا وفي غرفة الطفل وذلك بحثاً عما يلهي ذهن الطفل المسكين عن آلام لثته ولو للحظة، لترتاح أذناه من صوت بكائه. ولكن لا شيء استطاع أن يسكت الطفل.

وعلى شاشة التلفزيون، كانت النشرة الجوية تتحدث عن الجو الرائع الذي لم تتح لسام فرصة ليلاحظه، لم تتح له فرصة ينظف فيها المطبخ، حتى انه لم تتح له فرصة يلقي فيها بنظرة على الصحيفة، لقد كان يأمل في أن يضع برايان في مقعده، في فناء المنزل الخلفي، مع بيكا لمدة نصف ساعة فقط يتمكن فيها من تشذيب الحشائش في الفناء، ولكن هذا أيضاً لم يحدث. كما أنه لم يستطع أن يجعل الطفل يأخذ غفوته المعتادة بعد الظهر.

إن الطفلين في الفراش الآن، لقد ذهب للاطمئنان عليهما منذ برهة فوجدهما نائمين، بيكا تغطي نفسها حتى ذقنها ببطانيتها المفضلة والطفل واضعاً أصبعه في فمه، ولكن لم يكن ثمة ما يضمن بقاء هذا الوضع طوال الليل، ذلك ان بيكا كانت ما تزال تراودها الأحلام المزعجة احياناً... كما أن برايان... في مرحلة التسنين.

في أيام كهذه، كان يفتقد أخته نانسي وزوجها جيف

اكثر من العادة، خصوصاً نانسي، إنه يفتقد تلك العلاقة الاخوية التي كانت بينهما، والصداقة العميقة التي كانت تربطه بزوجها، وبقدر ما كان يحب ابنة وابن أخته، كان يفتقد تلك الليالي الهادئة عندما كان يشعر بالحاجة إلى العزلة وسكينة النفس.

لم يكن لديه فكرة، منذ ستة أشهر، بأن الأبوة يمكن أن تستنزف القوى الجسدية والعاطفية إلى هذا الحد، إذا كان الأب وحده... حسناً، إنه الآن يشعر باحترام بالغ لمن يربي الاطفال بمفرده. وحتى بمساعدة مدبرة المنزل إيمالين، لم يكن هذا العمل سهلاً عليه.

وأخذ جرعة من كوبه وهو يتأمل الفوضى في الغرفة، كيف اعتادت ايمالين ان تتصرف في مثل هذه الحالة؟ كان دوماً يوجد ألعاب هنا وهناك، ولكن المكان لم يبد قط وكأنه عقب انفجار قنبلة.

رأى أنها لا بد تحضر خادمة للتنظيف يومياً بعد ذهابه إلى عمله. ولا بد أن ما يدفعه لها من أجر، يمكنها من إحضار خادمة على حسابها، ثم انها تستحق كل قرش يدفعه لها، إذ أنها رفيقة جداً بالطفلين... فهي تعرف جيداً متى تدللهما ومتى تكون حازمة معهما. لقد جعلت الأمر يبدو سهلاً تماماً، فكر بذلك وهو يتمطى ثم يقفل التلفزيون والأنوار، ثم يتجه بهدوء إلى غرفة بيكا. فقد كان نومها دائماً قلقاً ما يجعلها ترفس عنها الأغطية كلياً، وهذه الليلة كانت منبطحة على السرير المزدوج، نائمة فوق الأغطية والملاءات، وما أن سوى الأغطية فوقها برفق، حتى تألق ضوء القاعة على كتاب كان متشابكاً معها.

انه الكتاب الذي اعطتها اياه ميغان، فأخذه بيده. لا بد أن الصغيرة اخذته معها إلى الفراش، مخفية إياه تحت الأغطية، ووضعه تحت إبطه يحدوه الفضول لرؤيته، هامساً لبيكا: «أحلام سعيدة، يا عزيزتي.» ثم اغلق الباب، فكر في إلقاء نظرة على الطفل، ولكنه عاد فصمم على عدم المخاطرة خوفاً من إيقاظه، فهو لا يستطيع مواجهة جولة أخرى من البكاء الآن.

في غرفة نومه، رقد في سريره، دون أن يكلف نفسه عناء أخذ ملابسه إلى غرفة الغسيل، إنه سيأخذها عند الصباح، أما الآن، فهو يريد أن يفحص كنز بيكا.

كان الغلاف بعيداً عن التكلف، ذا لون داكن الخضرة من الورق المقوى، وكانت صوراً لجراء طويلة الشعر وقطيطات لعوب الوانها مختلفة بين الأسود والأبيض والرمادي والبني، وكانت البرتقالة بلونها الأشقر ملفتة للنظر بشكل خاص، وكان يحيط بالحيوانات مجموعات مختلفة من الاشجار والاعشاب والازهار المتألقة تزين الصفحة والألوان مائية بعضها مشرق، والبعض الآخر خامد.

لقد قامت ميغان بكل هذا بنفسها، كما أدرك وهو ينظر إلى الصفحة التي تحمل اسم الكتاب، ثم تحول إلى الأغاني وقرأ كلا منها مرتين متذوقاً نكهتها ونكهة الرسومات، كانت الأغاني رتيبة تافهة، ولكنها مع هذا ممتعة سارة، صالحة تماماً لكي تسيطر على مشاعر الطفل وتزيد من خياله.

شعر سام أن ميغان ماكليستر التي وضعت هذا الكتاب بشخصياته والوانه، مختلفة جداً عن تلك المرأة التي جاءت لتقيم بجواره. ان الضياع يغير الانسان حقاً، فالأشياء

الممزقة لا تعود إلى الالتئام كما كانت بالضبط. وتملكه الأمل في أن تعثر على ذلك الجزء من نفسها الذي يستمتع بالأشياء الجميلة في الحياة. كان يريدها أن تستعيد النور والضحك والحب الذين سرقوا منها.

كان يريد أن يكون هو الشخص الذي يساعدها على ذلك، ولكنه عاد يحذر نفسه من الانجراف مع مشاعره، كان عليه أن يواجه الحقيقة وهي ان ليس في امكانه تحمل أية مسؤولية إضافية. فهناك، فوق ما يعانيه من آلام لفقدانه شخصين كان يكن لهما اعظم الحب، هناك محاولة مواجهة وضعه المفاجيء الذي جعله يقوم بوظيفتي الأب والأم معاً. اولى اهتماماته يجب أن تنصب على الطفلين أولاً، فقد فقدا الكثير. ثم على مرضاه... فقد خفض من أوقات ممارسته لمهنته، لكي يبقى مع الطفلين. وعليه، قبل أن يثور زملاؤه لذلك، أن يعود للقيام بقسطه في العمل وفي هذا ما لن يترك له وقتاً كافياً للقيام بأي شيء آخر.

وهكذا، ليس من العدل أن يطلب من ميغان أن تدخله في حياتها تحت شروط... في الوقت الذي كان يعلم فيه قلة ما بإمكانه أن يرد إليها مقابل ذلك. ليس بإمكانه أن يدعها تعتمد عليه في الوقت الذي قد لا يستطيع فيه أن يخلصها مما تعانيه.

وعبس لهذه الخواطر، ولكنه عاد يبتسم عندما وقع بصره على كتاب ميغان. غداً، قبل أن يستفيق برايان، سيجلس في فراش بيكا ويقرأ لها في كتاب ميغان، وربما سيجد وقتاً ليقرأه لها مرتين قبل خروجه إلى مكتبه. فقد كان يحب أن يبدأ يومه على صدى ضحكاتها.

إنه يريد أن يسمع ضحك ميغان، يوماً ما، ويرى اكثر من تلك الابتسامة الحزينة التي لا تكاد تصل إلى عينيها.

ووضع الكتاب من يده، ثم استدار يطفيء المصباح.

* * *

إنه مساء الخميس، وقد مر اليومان اللذان عملت فيهما ميغان في قسم المحاسبة في شركة كارشيرز، بسهولة، ولكنها كانت تتطلع بلهفة إلى إجازة آخر الأسبوع، لقد كانت ذهبت يوم الاثنين إلى المكتبة الفرعية واشترت عدة كتب تبحث في زراعة الخضار، ومجلداً ضخماً يعلم زراعة الورود.

لقد قرأتها كلها، مركزة على الفصول السهلة في زراعة الخضار، فحيث أنها كانت تقوم بهذا العمل للمرة الأولى، فقد كانت تريد أن تبدأ ببساطة ودون تعقيد. وهكذا صممت على زراعة البصل الأخضر، واللوبيا، والطماطم والبازيلا. وتصورت أن المنطقة الشمالية من حديقتها هي الأفضل لذلك. فهي تستقبل أشعة شمس الصباح وبعد الظهر، والظل عند اشتداد حرارتها.

حملت الورقة التي خططت عليها شكل الحديقة، ثم خرجت تقيس بالخطوات المساحة التي ستحرثها أثناء العطلة الأسبوعية القادمة. كان جارها في الفناء الخلفي واقفاً في حديقته يتفحص نباتاته، لا بد أن لديه ثروة من المعلومات، وتقدمت نحوه ثم عرفته على نفسها، فقال السيد جاك هندرسون من وراء السياج: «آه، أنت إذن المحاسبة الجميلة.»

«وكيف عرفت؟»

فأشار إلى ناحية منزل سام: «لقد اخبرني عنك سام. إنه طبيب، كما تعلمين وهو أيضاً شاب في غاية الوسامة.»

فتنهدت ميغان في اعماقها. ذلك أنها أمضت الأسبوع بطوله تحاول أن تكبت في نفسها ذكرى سام. فلم تنجح. وهذا المساء، وهي خارجة، رأته في الفناء رائع الجانبية في بنطلون الجينز وقميص رياضي قصير الكمين، وهو يلعب مع الطفلين، كانت تريد أن تسمع صوته مرة أخرى، وترى عينيه الزرقاوين تحدقان فيها باهتمام غير عادي، أن تشعر بالمزيد من تفهمه الرقيق، وشعرت برغبة للذهاب إليه.

ان إخماد شعورها بالإفتتان به، هو أصعب مما تصورت. وفي هذه اللحظة، كان مستغرقاً في رمي الكرة إلى بيكا، ثم دحرجتها إلى برايان.

سألها السيد هندرسون: «ألا تحبين صوت ضحكته الأطفال؟»

فأومأت وعيناها على الطفل الذي كان صوت ضحكة يصل إليها فيملأ وجدانها بمشاعر متضاربة من الألم، والرغبة، والضحك. وابتسمت. ربما الأمور تتحسن الآن بالنسبة إليها.

سألها جاك هندرسون: «وما هذه الورقة في يدك؟» فأرته الرسم التخطيطي لحديقتها المفترضة. وكان هو يغرس نفس الخضار التي صممت عليها ميغان، بالاضافة إلى الثوم، والخس، والجزر، والفجل.

سألته: «أتظن سيكون في إمكاني، انتاج هذه الخضار؟»

فانفجر ضاحكاً: «إن هذا الانتاج سيغرقك، هذا إذا لم يزد المطر عن حده، أو ينقص إلى حد الجفاف هذ الصيف. ليس بإمكانك التكهن بطبيعة الجو، هنا، فالوقت الآن منتصف نيسان (ابريل)، بينما الحرارة تبلغ الستين بقياس فهرنهايت، ولكن مازال في إمكاننا أن نتوقع جليداً متأخراً.»

«هل من الأفضل أن انتظر، إذن؟»

«كلا، إن بإمكانك أن تغطيها إذا بلغت البرودة حداً كبيراً. وسأريك طريقة ذلك. ولكن قبل ذلك، عليك بحراثة الأرض. دعينا نطلب من سام الحضور الى هنا.» سام؟ وخفق قلبها ذعراً. انها ليست على استعداد لرؤيته ثانياً. إنها ما زالت تشعر بالضعف منذ تلك الليلة التي بكت فيها. ولكن قبل أن تستطيع منعه، كان جاك يناديه طالباً منه القدوم. فوضع سام برايان على كتفيه، بينما سار هو وبيكا نحو السياج الذي يفصل بينهم، متجهاً رأساً نحو ميغان.

تصاعدت خفقات قلبها لرؤيته مع الأطفال. كان يبدو أباً لهما للحنان المتبادل بينهم، وانحبست انفاسها إذ نظر إليها بابتسامته التي اشاعت الدفء في كيانها.

هتف قائلاً: «مرحباً، يا جاك، ويا ميغان.»

فبادلته الابتسام قائلة: «مرحباً.»

وقالت بيكا للسيد هندرسون: «لقد الفت لي ميغان كتاباً.»

«أحقاً فعلت ذلك؟» واتسعت عينا الرجل المسن يشارك الطفلة اهتمامها. وشعرت ميغان بأن اهتمامه كان حقيقياً، ولكن، من بإمكانه أن ينظر إلى وجه الطفلة الجميل ولا ينجذب إليه؟

أجابت بيكا: «نعم، إنه أحسن كتاب رأيته في حياتي.» واستدارت نحو ميغان، ولدهشة هذه احتضنتها الطفلة من وسطها وهي تقول لها: «اشكرك.»

فشعرت ميغان بغصة تخنقها وهي ترى تأثير كتابها البسيط على الطفلة الصغيرة... وكان سرورها لا يوصف وهي ترد عليها قائلة: «مرحباً بك، إنني مسرورة لأنه اعجبك.»

فأضاف سام: «وقد اعجبني أنا أيضاً، إنه دافىء، ورقيق ومرح.»

لو أن هذه الكلمات نطق بها أي رجل آخر، لظنته مجرد إطراء فارغ، ولكن، كان في عيني سام شيء انبأها بأنه معجب حقاً بجهودها هذه.

أخذ برايان، الذي مايزال جاثماً على كتفي سام، يضرب رأس سام وكأنما تملكه الملل من ذلك الحديث الدائر بين الكبار.

وانزله سام يحمله بين يديه. فانطلق برايان يضحك وهو يحاول النزول إلى الأرض. «بيكا، هل بإمكانك ملاحظته لحظة؟»

«لا بأس.» واتجهت نحو أخيها الذي أغرق بالضحك وهو يحبو مبتعداً عنها بكل ما أمكنه من سرعة.

فهز جاك رأسه وهو يقهقه ضاحكاً: «يا لها من طاقة. أين ذهبت آلام التسنين، إذن؟»

فأجاب سام: «آه، إن هناك لحظات قليلة مريحة واكثر منها، متعبة. عندما تبدأ عنده آلام اللثة، لا يعود ينفع، عندها، أي شيء.»

«إذن، فسآخذهما عنك يوم السبت، لكي أفسح لك المجال لحراثة حديقة ميغان.»

فشهقت ميغان قائلة: «كلا.» وإذا بها ترى الرجلين يحدقان إليها بفضول، ولكن ليس بإمكانها السماح بدخول سام حياتها اكثر من ذلك. فتأثيره عليها كبير جداً. «إن بإمكاني تدبير أمري بنفسي.»

فعقد سام ذراعيه على صدره، وهو يقول: «لا يمكنك ذلك بماكينة جاك القديمة.»

ومرة أخرى، كان على ميغان أن تكبح رغبتها في الإذعان، فهي لا يمكنها المخاطرة بتوثيق صلتها به، رغم أن هذا ما كانت تريد، فقالت: «سأشتري آلة حراثة...»

سمع سام رنة الخوف في صوتها، كما رآه في عينيها. كانت خائفة من البقاء بقربه. أيمكن أن يتعلق هذا ببرايان والماضي الذي يذكرها به، أم أن في الأمر شيئاً شخصياً؟

قال لها جاك: «إن الحراثة لن تكون كما يجب، ذلك أن الأرض لم يسبق أن حولت إلى حديقة.»

قال سام: «ثم إن لي خبرة في استعمال آلة حراثة جاك.» وحك جاك كتفه: «حيث ان الآلة أصبحت ثقيلة بالنسبة إلي، فإن سام ابتدأ العمل في أرضي منذ أول نيسان (ابريل)، وسيحرث كل بقعة فيها بعد أن يبتدىء الجو في البرودة.»

فساله سام شاملاً، بذلك، ميغان جملة واحدة: «ما رأيك في أن نبدأ الساعة التاسعة والنصف من صباح السبت؟»

أجاب جاك: «هذا حسن بالنسبة إليّ. علي الآن أن ادخل إلى المنزل، فأنا في انتظار مكالمة هاتفية من أحفادي.» ولوح بيديه ثم استدار متجهاً نحو المنزل.

اخذت ميغان تنظر إلى جاك وهو يبتعد، وقد ظهر السخط في عينيها. وصمم سام على تجاهل علامة التمرد تلك، لم يكن يريد أن تقوم بينهما معركة. فقد كان تبدو ضعيفة... ثمة شيء مؤكد في أعماق عينيها، نتيجة خبرة، بأن الحياة ليست دوماً عادلة أو تعطي المرء ما يشتهي.

رفعت ميغان ذقنها بتحد سافر. لقد خرج الأمر من يدها. ولم تعرف ماذا ينبغي أن تقول، ولكن عليها بشكل ما، أن تستعيد مخططاتها بالنسبة إلى حديقتها. تلك المخططات التي لم تكن تشتمل على رجل بالغ الحيوية شغل بالها.

ثم كيف أمكن لها، بعد كل المعاناة التي مرت بها، أن تستسلم لجاذبية رجل آخر، لسام؟ وبينما كان عقلها قد تلقى درساً جيداً، يبدو أن قلبها لم يكن بهذا الذكاء.

«سام، إنني...»

وقطع حديثها عويل مفاجيء، واهتز فؤادها. إنه برايان قد انقلب على الدرجات الخشبية. وشلت حركتها بينما كان سام يندفع نحوه، فيرفعه بين ذراعيه ثم يخرج من جيبه منديلاً حاول أن يمسح به شفة الطفل السفلى.

دم... وانقبض قلب ميغان. وسرعان ما وجدت نفسها تقف بجانب سام. كان الطفل يصرخ وهو يتلوى ألماً ورأسه يميل من ناحية لأخرى. وكانت ذراعاه تحولان دون سام ومحاولة فحص الجرح. كان كل ما استطاعت ميغان رؤيته هو ذقن ملطخة بالدم.

قالت بيكا بصوت خافت: «إني آسفة.»

فنظر سام إليها وهو يحمل أخاها، ثم قال: «بيكا، حبيبتي، إن الذنب ليس ذنبك.»

فقالت الطفلة وشفتها السفلى ترتجف: «ولكن كان من المفروض علي ملاحظته.»

حاول سام أن يحرر أحد ذراعيه ليجذب بيكا إليه فأطلق برايان صرخة ثاقبة ثم لوى جسمه الصغير، لم يكن يريد أن يمسكه أحد، كما أن بيكا كانت بحاجة إلى التسرية عنها، فأجلس برايان على المصطبة، وهو مازال يصرخ بصوت عالٍ، فحبا هذا نحو ميغان، فقبض على ساقها، ثم رفع يده إليها. وتجمد سام.

أراد برايان منها أن تحمله. ورأت ميغان قلبها سيتحطم، ولكنها لم تستطع أن ترفض توسلاته الباكية. فجلست على الدرجة العليا، فتسلق إلى حضنها، وانحبست أنفاسها وهي تشعر بصدرها تطعنه المشاعر. الحزن، الشعور بالضياع، ثم شعور بالعجب وهو يستقر بين ذراعيها بشكل طبيعي وكأنه ابنها، لقد حدث كل شيء في لحظة واحدة، ولكن كل شيء عن هذه اللحظة قد حفر في ذاكرتها.

وقال سام: «ميغان... لا أدري ماذا خطر لبرايان لكي يأتي إلى شخص لا يعرفه. تعال هنا يا برايان.» ومد إليه يده، ولكن الطفل دفعها عنه بعيداً.

جلس سام بجانبها وقد ارتسم على ملامحه مزيج من الذهول والتوجس، والقلق، ومد يديه إلى برايان مرة أخرى، ولكن الطفل عاد يغوص بين ذراعيها مرة أخرى. ورغم تألمها لجلوسه في هذا المكان الذي كان ينبغي أن يكون لابنها فقط، رغم ذلك، تملكها شعور رائع، وتحولت شهقاته إلى نشيج خافت.

تنفست بعمق، ثم قالت: «لا بأس، يا سام.» ثم منحته

ابتسامة مرتجفة. «هكذا كنت سأحمل جوي.» وبدا عليها التأمل وهي تقول بصوت عالٍ. «لقد كنت اتساءل دوماً...»

فنظر إليها بقلق. كانت عيناها مغرورقتين بدموع لا تسيل. كانت تتألم، ولم يكن يعلم ما ينبغي عليه أن يفعل، بالنسبة لهذا، سوى أن يكون بجانبها.

جلس إلى جانبها على الدرجة، لم تبتعد عنه، ما جعل الدهشة والسرور يتملكانه. فناولتها منديله واخذ ينظر إلى برايان الذي سمح لها بمس شفته المجروحة، بخفة.

وضع سام بيكا على ركبتيه محتضنا إياها وهو يقول: «انظري إلى برايان يا حبيبتي، إنه بخير.» وقبل رأسها متابعاً. «إنه أخرق، وليس لك حيلة في ذلك.»

قالت ميغان وهي ترى نظرات بيكا القلقة: «انك أخت كبرى رائعة، ولم يحدث لبرايان سوى ارتطام بسيط فجرحت سنه شفته قليلاً، وهذا كل شيء.»

فقالت بيكا مشيرة إلى قميص ميغان: «لقد تلطخ قميصك بدمه.» فنظرت ميغان إلى بقعة من الدم على قميصها الأبيض، ثم إلى الطفل الصغير بين ذراعيها كان قد مسح ذقنه بصدرها. فقالت: «إنه ثمن قليل عليّ أن أدفعه.» ومست طرف أنفه مداعبة، ثم ابتسمت له عندما أغرق في الضحك.

وتساءل سام عما إذا كانت ميغان تدرك مبلغ ما تبدو عليه من جمال، في هذه اللحظة والحنان يكسو ملامحها وهي تحتضن برايان إلى صدرها. لا بد أنها تفكر في فقدها لطفلها ولكن دون ألم في عينيها. هل سيأتي الألم فيما بعد، عندما تنفرد بنفسها؟ وتمنى من كل قلبه، أن لا

يحدث هذا، ولكنه أحس بأن ميغان لا تشارك الآخرين مشاعرها بسهولة ماعدا، ربما، بالنسبة للأطفال.

تثاءبت بيكا وتبعها، في ذلك، أخوها. ورأى سام الشمس تميل إلى الغروب، فقال وهو يمسك بأنف بيكا مداعباً: «إنني أعرف طفلين عليهما أن يستعدا للنوم.»

فاعترضت قائلة: «إن برايان وحده نعسان وليس أنا.» وتثاءبت مرة أخرى.

فقال سام: «هيا، أركضي أمامي وساحمل انا أخاك.» ولكن عندما مد يديه إلى برايان، رفض هذا أن يتزحزح من بين ذراعي ميغان وهو مازال ينشج باكياً، فاسكتته هذه قائلة بلطف: «هس، ايها الصغير.» وعندما أمسك بها بشدة ومضى يحك وجهه بقميصها، قالت لسام: «لماذا لا آخذه إلى فراشه بنفسي؟»

«هل تريدين ذلك حقاً؟»

تنفست بعمق، وهي تدرك أنها، مرة أخرى، تسلم قيادها لقلبها دون عقلها، رغم ما دفعها ذلك إليه من مصائب في الماضي... كان عليها أن ترفض، ثم تناول الطفل لخاله يتعامل معه ومع صراخه الذي سيتلو ذلك. ولكن، ربما لن يكون في امكانها ابداً، بعد الآن، أن تشعر بمثل ما تشعر به، هذه اللحظة من بهجة غامرة.

قالت تجيبه، ببطء: «يجب أن أهرب احياناً من الماضي، وأظن هذه فرصة سانحة لذلك.»

وحملت الطفل بشكل جعل رأسه على صدرها، ثم وقفت كان أثقل مما توقعت. ولكنه كان عبئاً بهيجاً، ثم تبعت بيكا نحو البوابة. ومشى سام بجانبها. كان برايان يطوق عنقها

بذراع، ويضع ابهام يده الثانية في فمه، كان لدفء هذه اللحظة أن يكفيها حتى آخر عمرها.

كانت غرفة برايان الصغيرة مزخرفة بألوان مشرقة وورق جدران مرسوم عليه طائرات وسيارات سباق، وكان هنالك صندوق مليء بالحيوانات المحشوة وكتب للأطفال الصغار.

ترددت ميغان عند العتبة، كانت هذه هي المرة الأولى منذ نهاية حملها، التي تدخل فيها غرفة طفل صغير. لقد كانت صممت على استعمال ورق جدران مرسوم عليها صور ديناصور في غرفة جوي، حتى انها اشترت دمية محشوة تمثل ديناصور يزأر عند الضغط عليه، وسيارة مشرقة الألوان. وقد تركت كل هذا خلفها.

قال بهدوء: «إذا انت وضعته في فراشه، فسأخلع أنا ملابسه راجياً أن لا يعارض كثيراً في ذلك.»

فتقدمت ميغان نحو السرير الذي كانت ملاءته تتألق برسوم ملونة، أنزل سام حاجز السرير، فوضعت هي الطفل في فراشه برفق. ولما حاول أن يصرخ، أخذ سام يحدو له، وسرعان ما أعاد إبهامه إلى فمه.

واستدارت هي نحو الباب وقد غمرتها المشاعر إزاء هذا المشهد الذي يصور الحياة التي كانت تحلم بها. كانت بيكا تقف في العتبة مرتدية قميص نوم وردي وتحمل بيدها كتاب ميغان. وتذكرت ميغان اعجاب الصغيرة بالكتاب.

نظرت إلى سام وهو يتكلم برقة إلى ابن أخته بينما يخلع عنه ثياب اللعب، ثم نظرت إلى بيكا، كان كل ما تريده هو أسرة خاصة بها... ولكن هذا لن يكون أبداً، ولهذا، سوف

تحتفظ بذكرى هذه اللحظة التي تقف فيها بيكا بجانبها محتضنة كتابها الذي كانت تقرأ فيه ما سبق وكتبته هي من اغان بسيطة وذلك منذ مدة طويلة.

وسرعان ما كان الولدان يغطان في نومهما.

قالت: «حسناً، عليّ أن أذهب الآن.» ورأى هو اتجاه نظراتها إلى الباب وأدرك استعدادها للهرب. ومع انه رأى أن من الحكمة أن يدعها تخرج، إلا أنه لم يشأ ذلك، فسألها: «ما رأيك في شيء من العصير؟»

فارتفع حاجباها دهشة. وبدا شيء في عينيها... شوق للبقاء... تبعه الحذر مرة أخرى. ولكن وجودها هنا ومساعدتها له في إرقاد الطفلين، أشعره بمبلغ شعورها بالوحدة.

وعاد يقول: «أرجوك. فأنا بحاجة إلى صحبة شخص راشد.»

فارتفع حاجبها، وبدا شبح ابتسامة في زاويتي فمها، وهي تقول: «انك تتكلم كأم مضى عليها اسبوع لم تتكلم مع شخص فوق الخامسة من العمر.»

«هذا هو شعوري. إنني اتحدث، بالطبع، إلى زملائي في العمل، وإلى مرضاي، وعادة في شؤون العمل. إنني بحاجة إلى صحبة بعيدة عن جو العمل.» وعندما رأى لمحة اهتمام في عينيها اضاف قائلاً: «ما رأيك في أن تشربي شيئاً؟»

فتهاوت إرادتها إزاء ابتسامته. وبعد، ما الضرر في عدة دقائق أخرى تمضيها معه؟ إن عليها أن تعترف أنها هي أيضاً بحاجة إلى أن تبتعد فترة عن جو العمل في الشركة.

فأومأت قائلة: «لا بأس.»

اتسعت ابتسامته: «رائع. لدينا عصير التفاح. كولا خالية من السكر للرجيم. حليب، أم انك تريدين شرابا غير هذا؟»

فقالت: «أحب الكولا، من فضلك.»

رأت أنها اتبعت القرار الصحيح وهي تراه يعود من المطبخ حاملاً كوبين من الكولا، ثم اتجه بها إلى الأريكة حيث جلسا.

قالت: «اخبرتني بيكا أن إيمالين لا تمكث إلى الوقت الذي يجب أن ترقد فيه الطفلين.»

«ليس ثمة طريق آخر. فليس في منزلي مكان تنام فيه مدبرة منزل، كما انني لا أريد أن أغير هذا البيت الذي ألفته بيكا، هذا إلى أنني لست في وضع يسمح لي باتخاذ القرارات.»

«إنني أقدر شعورك هذا.» لقد كانوا طلبوا منها، حال ولادة جوي، ان تتخذ قراراً هاماً بالنسبة إلى حياة طفلها، وكان هذا قراراً يقرب من الاستحالة.

ولاحظ سام أن الحزن يعود إلى عينيها مرة أخرى، فلم يحتمل ذلك. لقد كان يتعامل مع أناس يصادفون الضياع والأحزان يومياً، ولكن الأمر، مع ميغان، يبدو شخصياً، ولم يشأ أن يحلل هذا.

الفصل الرابع

أخذت ميغان تذرع المطبخ وقد برّح بها القلق وأذهلتها الصدمة، لتقرر أخيراً، أن ما حدث كان جنوناً صرفاً، وأنها فقدت عقلها... إذ لا شيء آخر يمكن أن يفسر ما فعلت.

وقفت وهي تتأوه بصوت عالٍ، لتأخذ في تعنيف نفسها. لقد أفسدت في مساء واحد، كل التقدم الذي حازته في سنة كاملة، في مقاومة الألم، وجمع شتات نفسها من جديد.

لقد جذبتها ابتسامته فأنستها كل شيء، من حسن حظها ان انتبهت إلى الحقيقة قبل أن تتمادى في هذا، لقد أنقذت نفسها، وفي آخر لحظة.

لاعجب أن تفقد رشدها وهي مع سام، تضع طفليه في فراشهما كما لو كانت تؤلف، معهم، أسرة عادية ثم يتناولان، بعد ذلك، العصير ويتحدثان إلى آخر النهار، كل هذا جعل الضعف يدب في كيانها، ما جعلها سريعة التأثر به. لقد أفلتت منه اليوم، ولكن هذا لن يحدث مرة أخرى. وكان هذا عهداً منها بذلك، إنهما جاران وسيبقيان كذلك على الدوام. وذهبت إلى غرفتها لتسرح شعرها وهي تذكر نفسها بالعهد الذي أخذته على نفسها، منذ تركها أليكس، وهو أنها لن تسمح للحب بأن يستولي عليها، بعد الآن.

إنها، وسام، سيتبادلان التحية من بعيد في كل صباح، عند ذهابهما إلى العمل، وعندما يرى أحدهما الآخر، أمام

منزليهما، سيتحدثان معاً بكل أدب، بينما سام يلاعب الطفلين، وترعى هي حديقتها...

الحديقة... وتملكها الذعر وهي تلقي بالفرشاة من يدها، وأخذت تحدق في صورتها في المرآة، من المفروض ان يحرث سام حديقتها، السبت، وهي لا يمكنها المخاطرة بالتواجد معه ولو لوقت قصير.

إن بامكانها أن تغير عقلها، أن تأخذ دروساً في الطهو بدلاً من انشاء حديقة. ولكن، كلا، إنها تريد الشعور بمتعة الزراعة ومراقبة النباتات وهي تنمو، إن أمامها يوماً واحداً تتخذ فيه قرارها النهائي والذي يجب أن لا يكون فيه مجال لسام.

إن اصدقاءها الوحيدين، عدا عن جاريها هنا، هم زملاؤها في العمل، ما بين محاسبين وكتبة وغير ذلك، ولا بد أن بامكان واحد منهم أن يساعدها بالنسبة إلى حرث وزرع الحديقة. وعندما أوت إلى فراشها، كانت قد قررت أن تتصل بزملائها تطلب منهم هذا.

ولكن الكلام أسهل من العمل، كما اكتشفت في الصباح التالي، فموظفو المكتب كانوا جميعاً إما في البحيرة يزاولون التجذيف في الزوارق، وإما يتفرجون على المباريات الرياضية على شاشة التليفزيون، أما النساء منهن فقد كن يركزن اهتماماتهن إما في اجتماع رابطة الآباء، وإما في تنظيف المنزل، بينما أزواجهن يربضون على الأرائك متفرجين على برامجهم الرياضية المفضلة، على شاشة التلفزيون، ولا احد منهم كان مستعداً لتحمل التصاق التراب تحت أظافرهم نتيجة العمل في الحديقة.

وفيما بعد، في ذلك الصباح، سألتها ليز زميلتها في

الشركة: «وما الذي يجعلك تجهدين نفسك في زراعة الخضار، بينما هناك محل يبيع الخضار الممتازة خلف المبنى حيث عملنا؟»

كانت ليز إمرأة ثرثارة خفيفة الروح، في السابعة والعشرين من عمرها، وقد انعقدت أواصر الصداقة بينها وبين ميغان حال وصول هذه الشركة. ولكن ليز لم تستطع أن تفهم سبب رغبة ميغان في رعاية النبات الصغير إلى أن يكبر.

قالت لها ميغان: «إنني أسكن في ضاحية الآن، يا ليز، ولهذا أعمل كما يعمل سكان الضواحي.»

«حسناً إذن، ما دمت مصرة على هذا العمل الفظيع، أطلبي من أحد جيرانك أن يساعدك.»

وكادت ميغان أن تصرخ، إن كل محاولاتها كانت تدفعها للعودة إلى ذلك الرجل الذي كانت تريد أن تتجنبه، كان يبدو أن سام سيكون له شأن في حياتها، وهذا ما لم تكن تريده أن يحدث.

أخذت ليز تحدق في أظافرها الملونة لحظة، ثم اتجهت نحو الباب حيث توقفت لتعود بنظراتها إلى ميغان، قائلة: «لقد اشترى مكتب تيم عدداً من التذاكر إلى ساحة الألعاب هذه الليلة، هل تريدين الذهاب معنا؟»

ألعاب البيسبول.. ساحة الألعاب هذه هي عادة ملتقى العائلات، إنها مكان يأخذ الأباء أطفالهم إليها. ولم تكن ميغان واثقة من مشاعرها تجاه تلك المشاهد، ولكن حان الوقت لكي تتوقف عن الهرب من الحياة.

اخفت ذعرها وهي تومىء قائلة: «يبدو أنها فكرة رائعة.»

«هذا حسن، سأخبر تيم. ما الذي ستفعلينه أثناء فرصة الغداء؟»

«سأشتري أثاثاً لشرفتي.»

فتأوهت ليز قائلة: «لا تخبريني بأنك ستجلسين في الشرفة للتفرج على حديقتك، حسناً علينا أن نجد لك عريساً.»

وما أن خرجت ليز من المكتب، حتى تنهدت ميغان، كيف بامكانها أن تجعل صديقتها تفهم أن آخر ما تريده هو صداقة رجل؟ وأنها كانت الخاسرة على الدوام في كل مرة وقعت فيها في الحب؟

• • •

ذعرت ميغان وهي ترى صباح السبت يطل على الكون مشمساً دافئاً، لقد كانت تمنت أن يحدث عواصف، أو جو لا تحتمل حرارته، أثناء الإجازة الأسبوعية... أو يهجم الجراد... أو أي شيء يمكن أن يمنع سام من حراثة حديقتها.

وعندما طرق بابها الساعة الثامنة والنصف ذلك الصباح، أدركت أنها وقعت في مأزق وقف عند العتبة، وقد حمل برايان بين ذراعيه بينما وقفت بيكا بجانبه.

قالت بيكا بابتهاج: «لقد نادينا السيد هندرسون، ولكنه قال إنه لن يستطيع مراقبتنا هذا النهار.»

فسألت ميغان وهي تخرج إلى الشرفة: «هل هو بخير؟»

أومأ سام يجيبها: «نعم، ولكن إبنته التي تعيش في المدينة جاءته مع أولادها الليلة الماضية.»

فأدركت ميغان، من نبرة خاصة في صوته، أن ثمة سبباً آخر لحضور الابنة أكثر من مجرد زيارة مع أولادها.

فقالت: «والسبب..؟؟»

فعاد يقول: «يظهر أنها تركت زوجها. إن جاك مستاء جداً لذلك.»

بدا العبوس على وجه سام. وفهمت ميغان معنى ردة فعله هذه والتي تعني أن هذا مثل آخر لعدم نجاح الحب. كم عدد الذين يصادفهم في عيادته يومياً، من هذا النوع؟ لا بد أنهم كثيرون، نظرت إليه، ثم سألته: «هل ما زلنا، إذن، على ما قررناه بالنسبة لحديقتي؟»

فأجابت بيكا وقد تألقت عيناها: «نعم، إذا أنت قبلت بأن تراقبينا.»

وقبل أن تجيب، قال سام: «وإذا لم تقبلي، فسنتفهم الأمر.»

لقد عاد يفكر بمشاعرها مرة أخرى، ولهذا جعل لها مخرجاً إذا هي شاءت. وشعرت بالضعف يتملك قرارها الذي كانت صمتت عليه، وعندما نظرت إلى بيكا، شعرت بالضياع. كيف يمكن لأي إنسان أن يضن على هذه الصغيرة بشيء؟ وقالت: «سأبقى معكم بالتأكيد.»

فهتفت بيكا بابتهاج، بينما أخذ برايان يتلوى حتى وضعه سام على الأرض. وعندما سكتت بيكا، حاول هو أن يتعلق بساق ميغان وهو يرفع بصره إليها ضاحكاً.

حدقت إلى الطفل وقد امتلأ قلبها بالحنان. لم تكن تستطيع احتمال هذه المشاعر التي كان يثيرها في نفسها. فقد آلمها أن تنظر إليه فتتذكر طفلها الذي فقدت. ولكن

برايان قد فقد أهم شخصين في حياته. فقطع هذا نياط قلبها، لقد شعرت بلهفة إلى حمله وضمه كما سبق وفعلت تلك الليلة التي وقع فيها وجرح شفته.

إن الاستسلام سهل عليها، ورائع أيضاً... ولكنها لن تسمح لنفسها بنسيان ما حدث بعد أن وضعت، تلك الليلة الطفل في سريره، إذ شعرت في غرفته، وكأنها موجودة في بيتها.

ولكن منزل سام ليس بيتها وهي لن تكون أبداً جزءاً من أسرته الصغيرة.

تمتم سام وهو يحاول أن ينتزع برايان الذي كان متشبثاً بساقيها: «ربما هذه الفكرة غير حسنة.» ولكن الطفل ازداد تشبثاً، رافضاً تركها.

فرفع سام نظراته إلى وجه ميغان الذي كانت تتناوب عليه ملامح العذاب، والأسى والخوف، والبهجة.

قالت بيكا بصوت حاد: «إن برايان يحب ميغان اكثر من أي شخص آخر.»

فطرفت ميغان بعينيها. وازداد برايان تشبثاً بقماش بنطلونها، متوسلاً إليها أن تحمله، وهو يصر على رفض المجيء إلى سام. وانحنت ميغان ثم أخذت تمر بيدها على شعره الناعم ورفع هو يديه اليها، وعندما مد سام يديه إليه، أخذ هذا يضربه مبعدهما عنه.

أخيراً، تنهدت ميغان وهي تنحني آخذة الطفل بين ذراعيها. فأخذ يربت على وجنتها وهو يضحك مبتهجاً، ليطبع عليها، بعد ذلك قبلة رطبة حارة رائعة. وشهقت هي، بينما قال سام شاعراً بالعجز: «ميغان...»

فنظرت إليه بابتسامة حزينة: «لابأس.» وحست بأنملتها

طرف أنف الطفل وهي تخاطبه قائلة: «إنك طفل قوي الإرادة، أليس كذلك؟»

فنظر برايان إلى سام بابتسامة ظافرة وهو يثرثر بصوت عالٍ وكأنما يعلن عن فوزه في هذه المعركة، وتملك سام شعور بأن الطفل ربما ليس سلس القياد كأخته، وأن عناده قد يقود إلى صراعات في المستقبل وهذا الموضوع يجب أن يبحث في أمره يوماً ما، كما أن هذا الموضوع يذكر سام بالأوليات من اهتماماته، إذ بقدر ما كانت ميغان تجذبه، كان لديه التزامات أخرى.

قال لها: «سأسير إلى منزل جاك لأحضر المحراث، هل ستكونين مع الطفلين على ما يرام؟»

تنفست بعمق، ثم أومأت برأسها، انما بشيء من التردد. تنحنح، ثم مد يده يعبث بشعر الطفل، مطمئناً بيكا بأنه سيعود بسرعة، ثم توجه نحو منزل جاك هندرسون.

شعرت ميغان بالذعر لحظة، عندما تركها سام وحدها مع الطفلين. إنها لا تعرف أي شيء عن العناية بالأطفال فإذا أصاب أحدهما أي ضرر بسببها فستكره نفسها.

وكما توقعت، لم يقبل برايان بالجلوس على ركبتيها طوال الوقت، فالصبيان مخلوقات محبة للاستطلاع. ولما لم يكن مستثنى من ذلك أراد أن ينزل إلى الأرض ليتفحص المكان. إن عليه أن يدس اصبعه في كل ثقب في أرض الشرفة الخشبية، ويحاول ادخال رأسه بين قضبان الدرابزين ويجرب مقدرته على تخطي درجات المدخل الثلاث.

وجنّبته ميغان المشاكل، بمعونة بيكا. وكانت أفكارها تعود دوماً إلى حيث كان سام يعمل. وكان هو الموضوع

الرئيسي في أحاديث بيكا، ولم تتوقف عن ذلك إلا فترة بسيطة حين وصل أثاث الشرفة، ثم عندما ساعدت ميغان في تقرير ما عليها أن تصنع الشاي أم الليموناضة.

تملك ميغان العجب من تصرف سام بالنسبة الى الطفلين، ذلك أن اليكس، زوجها السابق، لم يكن يحب أن يكون له طفل. لقد كان يقول لها إن الاطفال يسببون الفوضى والارتباك. ولكن سام كان شيئاً آخر. كما أنه جذاب جداً. وتحولت نظراتها نحوه ثم أخذت تلعب مع بيكا وبرايان ولكن بصرها كان غالباً على سام، تلاحظه وهو يعمل، فتعجب من نشاطه.

كان شكله، يمتزج بالرقة والرعاية. وقد جذبت الصفة الأخيرة اهتمامها بقدر ما جذبتها حيويته. لم يكن سام يشبه بشيء زوجها السابق.

كان برايان، في هذه الاثناء، ينوء بمحاولته النهوض ليقف متمسكاً بكرسيها وهو يضربها على ساقها مثرثراً وكأنه يعنفها لشرودها في تلك التأملات. لم يكن لديها الحق في التفكير في سام في واقع كهذا، فقد كان أباً بطبيعته. ورجل يكن هذا القدر من الحب للأولاد، لا بد أن يرغب يوماً ما، في انجاب أطفال منه. وهكذا على ميغان أن تقنع بالعناية بحديقتها.

«مرحباً، ماذا على عامل مجتهد أن يقوم به لكي يحصل على شيء من الليموناضة؟»

حدقت ميغان بسام وهو يتهالك جالساً على الدرجات بجانبها.

فتمتت تقول: «سأحضر إليك الليموناضة.»

فقالت بيكا: «أيمكنني أن أسكبها بنفسي؟ آه كلا، لقد نسيت أن الكوب كبير.»

فقالت ميغان: «إحملي أنت الكوب، وسأملأها أنا.» كانت بحاجة إلى القيام بأي عمل يبعدها عن سام. وهكذا ملأت الكوب، وناولته لبيكا، ثم أخذت تنظر إليها بينما هذه تحمله بكل حذر لتعطيه لخالها. كان بينهما رباط بالغ القوة. فقد جعلها سام بجانبه، واضعاً ذراعه حول وسطها، بينما رفع الكوب إلى شفتيه يعب الشراب مرة واحدة. وأخذت ميغان تتأملهما وقد عادت إليها المشاعر التي سبق وتملكتها.

وما لبث برايان أن أخذ يحبو متجهاً نحو سام، طالباً حصته من الاهتمام والعصير. وبابتسامة متسامحة، أوسع سام وبيكا ما بينهما لكي يفسحا مجالاً لبرايان لينضم إليهما، وما أن ابتلع هذا جرعة الليموناضة، حتى رفع يديه يلوح بهما وهو يصرخ. فقدمت فيغان إليه الكوب الذي كانت تشرب منه ولكنه رفض. فتنهد سام قائلاً: «هذه إشارة إلى أنه جائع.» وشعرت ميغان أنه كان يأمل في عدة لحظات أخرى يرتاح فيها قبل أن يأخذ الطفلين إلى البيت ويعد لهما الغداء. ولكن الراحة كانت من مرفهات الماضي، بالنسبة إليه، كما رأت من صراخ الطفل والحاحه.

قالت لسام: «إنك متعب، فدعني أعد غداء لكم جميعاً.»

فهتفت بيكا بابتهاج: «يمكننا، إذن، أن نتناول الغداء خارجاً على المائدة الجديدة.»

رفع سام حاجبيه قائلاً: «هل بإمكانك هذا حقاً؟»

«اعتبر ذلك مقابل ما قمت به لأجلي.» ونظرت إلى الطفل. «هذا إذا كان لدي شيء يصلح طعاماً لبرايان.»

«لا تقلقي بشأنه، فبإمكانه أن يأكل كل شيء تقريباً ولا يأنف من شيء.»

فقالت بيكا باشمئزاز: «نعم. حتى انه يأكل ورقاً وتراباً.»

فحمل سام الطفل فوق رأسه وهو يحدث بفمه صوتاً أشبه بهدير الطائرة، فيغرق الطفل بالضحك. ولكن سام قال منبهاً: «إن هذا لن يلهيه وقتاً طويلاً.»

ففهمت ميغان الإشارة، فنهضت تدخل المطبخ هي وبيكا حيث أخذتا تقلبان محتويات الثلاجة. فأخرجت ميغان قطعاً من لحم ديك الحبش، وسلطة خس وطماطم، وكيساً يحتوي على بسكويت مملح اعطته لبيكا لتلهي به برايان إلى حين تنهي صنع الطعام.

كانت وجبة الغداء دافئة شهية. ولكن جلوس سام أمام ميغان على المائدة يعذبه. كانت تبدو رائعة الجمال والنسائم تعبث بشعرها البني الكث. وكانت ضحكتها بالنسبة إليه، أشبه بموسيقى عذبة.

أراحت ميغان ظهرها إلى الخلف وسألته وهي تلقي ببصرها نحو صفوف الأثلام التي أحدثها في الأرض: «أشكرك على حرثك لحديقتي. إنك ماهر جداً في استعمال تلك الآلة.»

«لقد اكتسبت خبرة كبيرة من وراء مساعدتي لجاك.»

وعندما أنهى مسح وجه برايان، شعرت ميغان بالشوق الى ما لا يمكن لها الحصول عليه، شعرت بكل ذلك يسري في كيانها. فأخذت تشغل نفسها برص صحون الورق واقفال حاويات الأطعمة سريعة الاعداد والتي كانت ما تزال تحتوي بقايا من غدائهم.

هتفت بيكا وهي تشير الى فتاة أقبلت ووقفت خلف السياج مباشرة، تقول: «أنظر إن لدى فرانسي دراجة جديدة. هل أذهب وألعب معها؟»

فأومأ قائلاً: «لابأس. إنما لا تبتعدي عن هذا المكان إذا ركبت الدراجة.»

«نعم. شكراً للغداء، والمعذرة لتركي المائدة. الى اللقاء.»

فضحكت ميغان وهي ترى الصغيرة تندفع معددة قائمة جمل التهذيب التي كانت تعلمتها، وذلك أثناء ركضها للالتحاق برفيقتها، وقالت تعلق على ذلك: «يا لحسن سلوكها.»

فقال وهو يضع برايان على الأرض: «نعم لقد أمكنها ان تعدد كل ما عليها أن تقوله. ولكن أتظنين أن بامكاني ان أجعلها تقول كل هذا وهي واقفة بهدوء؟»

ولم يخف على ميغان نبرة المحبة التي بدت في صوته، فقالت متأملة: «إن من حسن حظ الطفلين أنك معهما.»

فابتسم قائلاً بعطف: «وكذلك بالنسبة الي، على الأقل في أغلب الأحيان.»

فأخذ برايان يثرثر موافقاً على قوله، ثم حبا إلى الأريكة وأخذ يتسلقها. وعندما جلس عليها، أخذ يصفق بيديه.

فقال سام للطفل الذي، ووضع إبهامه في فمه: «إنك فخور بنفسك، أليس كذلك؟» في هذه الاثناء، ألقى الطفل بنفسه إلى الوسادة خلفه ونام فتابع سام قائلاً بحيرة: «لا أصدق هذا. أظنه سيقع.»

فقالت: «أظن هذا لم يعد يحدث له مؤخراً.»

«ليس تماماً. فقد بقي الليلة الماضية مستيقظاً بسبب ألم أسنانه. من المفروض أن آخذه إلى البيت لأرقده في

سريره، ولكن إذا أنا رفعته الآن، فسيبكي وقد لا اتمكن من جعله ينام مرة أخرى.»

«دعه هنا، إذن، فالشمس دافئة والريح معتدلة. وذراعا الكرسي الذي ينام عليه ستحفظانه من السقوط.»

فأمعن سام النظر في التعبير الحزين المكتئب الذي بدا على وجهها فأثار عطفه: «ميغان... هل من الصعب عليك أن... تكوني قريبة من برايان؟»

نظرت إلى الطفل النائم، وتنهدت قائلة: «نعم، إنه كذلك، ولكن ذلك... حسناً، لقد جعلني ذلك أدرك أنني أتجنب معالجة بعض الأمور.»

«أتعنين موت ابنك؟»

«أشياء تتعلق بذلك. فهناك، في بوسطن، توقفت عن الخروج، خصوصاً إذا أنا ظننت أن ثمة أولاداً في طريقي. صديقاتي ممن لديهن اولاد، خفن من القدوم لزيارتي خوفاً من أن يسببن لي الحزن. لقد كان أسهل عليّ أن أفقد صداقتهن، من أن احتمل نظرات العطف التي كنت أراها في أعينهن عندما ينظرن الي.»

«إننا جميعاً نقوم بما نراه مناسباً وذلك لكي نجتاز المحنة.»

أومأت وهي تتابع: «بقيت أشهراً لا أشعر بأنني حية.. وما لبثت أن عدت الى العمل بعد أن سمح لي الطبيب بذلك. فكنت أعود إلى منزلي كل ليلة، محاولة أن لا أفكر كم هو فارغ البيت... محاولة أن لا أفكر أبداً.» وسكتت ما زالت هذه الذكريات حديثة مؤلمة. «ما الذي جعلك تتركينه؟»

«لا أدري. لقد عدت ذات ليلة إلى منزلي فلم أستطع

احتمال فراغه اكثر من ذلك. أردت استدعاء صديقة، ولكن...» وتنهدت مرة أخرى: «لكنني تغيرت... كثيراً. لم تعد الحياة هي نفسها. وهكذا تركت كل شيء خلفي.» تركت كل شيء ألفته، كل شي كان يذكرها بحماقتها وضياعها. وهربت.

سألها: «وماذا بالنسبة إلى أسرتك؟»

«ليس لدي سوى أبوي، وهما يعيشان في بالتيمور.»

«إنها ليست بعيدة عن بوسطن. الم يأتيا للمكوث معك إلى أن تستطيعين الوقوف على قدميك مرة أخرى؟»

فهزت رأسها نفياً: «إن أبي هو ممثل شركات أدوية. فهو يجول بسيارته طوال النهار. وعندما يعود إلى البيت، فهو يفضل الجلوس في كرسيه المفضل، رافعاً قدميه، ثم يتفرج على التلفزيون. أما أمي فهي لا تقود السيارة.»

فسألها رافعاً حاجبيه بعدم تصديق: «لا تقود أبداً؟»

«نادر جداً. إن زحام الشارع يثقل على أعصابها، كما أن البحث عن موقف لسيارتها يصيبها بالإحباط. وهكذا، تستأجر سيارة في العادة، ولا تجلس خلف عجلة القيادة إلا عند الأحوال الصعبة.»

فقال غاضباً: «وهل ما كنت تعانينه ليس أمراً صعباً بالنسبة إليها؟»

فقالت تؤنبه بابتسامة باهتة: «هون عليك الأمر، بالنسبة إليهما، يا دكتور ارمسترونغ. لقد كانت إلى جانبي، خصوصاً في البداية. ولكنني أخذت أبعدهما. وكذلك هما يعتقدان ان الشخص، عندما يقع، يمكنه أن ينهض بنفسه.»

«ليس الأمر دوماً بهذه السهولة.»

«هذا ما اكتشفته. ولكنهما تصورا أن عودتي إلى حالتي الأولى ستكون أسرع إذا كنت بمفردي. وعندما لم تجر الأمور حسب تصورهما، نفد صبرهما مني.»

«إن الأشخاص، مرهفي الإحساس، الذين يهتمون بالآخرين، يستغرق شفاؤهم، عادة، مدة أطول.»

فقالت وهي تتأمل في كلماته هذه: «أشكرك أظنني كنت بحاجة إلى سماع هذا من شخص ما.»

من شخص حساس ويهتم بالآخرين. كان شعورها يخرج عن سيطرتها، ولكنها لم تستطع ايقافه.

وقالت تسأله: «وماذا بالنسبة إليك؟ كيف كان تصرفك بالنسبة إلى موت شقيقتك؟»

تنهد ثم أجاب: «اكتشفت كم هو أسهل على المرء أن يكون موضوعياً ويرى الشيء بابعاده الصحيحة بالنسبة لمأساة لا تخصه شخصياً.»

«وعندما ترث ولدين بهذا الشكل المفاجيء.» فانتقل ببصره إلى برايان الذي كان راقداً على الأريكة، مكوراً جسمه الضئيل وابهامه في فمه، ثم قال: «إنني لم أكد أجد وقتاً للحزن على نانسي وجيف. كان علي أن أبحث عن مدبرة للمنزل، ومدرسة لبيكا، وأن أحول منزلي إلى بيت لها ولأخيها.»

«كانا بحاجة إلى شخص يرعاهما، فوجداك.» لا بد أن الأمر لم يكن سهلاً بالنسبة إليه أن يدخل في حياته، وهو الاعزب، طفلين صغيرين. ولكنه لم يهرب من المكان كما فعل أليكس.

«كانا بحاجة إلى أب وأم. أما أنا، فكنت في البداية، بديلاً ضعيفاً لهما. خصوصاً بالنسبة الى برايان. كان يعرفني،

ولكن كيف يمكنك ان تساعدي طفلاً بعمره، على أن يفهم ما هو الموت؟ وذلك في الوقت الذي لا يستطيع أن يفهم لماذا عليه أن يغتسل؟»

قالت: «إنك تقوم بذلك بصبر وحب بالغين.»

فابتسم ساخراً: «إنك تظهرينني بالرجل المخلص. ولكن هناك أوقات تمر بي... خصوصاً في هذه الأيام التي هي طور التسنين بالنسبة لذلك الصغير.»

«هل تمر بك أوقات يبتعد فيها تفكيرك عن تفكير المخلصين؟»

«أحياناً، مثل أن أتمنى تدخلاً جراحياً لشق لثته، أو ربما تناول مهدىء لنا نحن الاثنين إلى أن ينتهي التسنين هذا.»

وضحكا معاً. كان يحيط بهما جو يحوي شيئاً رائعاً، وكذلك غير مستقر، كما شعرت به ميغان بكل دقة. كان موجوداً في سهولة تبادلهما المشاعر عن الضياع، والتسنين. شعرت وهما يجلسان هناك تغمرهما أشعة شمس نيسان (ابريل) الدافئة، بصلة تربطها بسام. كالدفء الذي يتبع جواً بالغ البرود، أو الماء بعد أشهر من الجفاف.

ربما كان هذا ما جعلها تقبل دعوته إلى السينما، بسرعة ودون تفكير سوى الى متى تريد البقاء معه.

الفصل الخامس

«آه... سام...»

كانت تريد أن تتملص من وعدها بالذهاب معه، حالما أبدت موافقتها، وقد أدرك سام ذلك، فقد رآها تفتش عن الكلمات التي تخبره بها بأنها لا تستطيع الذهاب معه، إن عليه أن يسمح لها بالتراجع قبل أن يأتي وقت يندم فيه هو على تهوره هذا، ولكنه كان يريد مرافقتها... إلى درجة جعلته يتخلى عن طبيعته الحذرة.

إندفع قائلاً: «اننا سنكون مجرد صديقين ذاهبين إلى السينما، ولا شيء غير ذلك.»

فنظرت إليه متشككة، فقال باخلاص: «حقاً.» ذلك أن ما كان يريده حقيقة، لم يكن بإمكانه نيله، كان يريد أن يتعرف إلى شخصيتها عن قرب، وبشكل وافٍ. «لقد اضطربت حياتي منذ جاء الطفلان للعيش معي، تماماً كما حدث لك بالنسبة إلى الصداقة، إذ الكثير من اصدقائي لم يعجبهم تغير مجرى حياتي.»

وهنا ترددت ميغان، لقد كان مقدراً تماماً لما سبق وعانته، كما أنها تعاطفت معه لما يعانيه. لقد كانت اقترفت أخطاء عديدة بالنسبة إلى ماضيها، وهي الآن في أشد الخوف من القيام بأي شيء. «لا ادري، يا سام...»

فنظر مرة أخرى، إلى إبن أخته النائم، ثم إليها. وأحست

هي بأنه يزن الأمر في نفسه: «ميغان، إن عليك أن تعلمي أنني أراك جذابة جداً...»

شعرت بالخطر من كلامه، تنفست بعمق ثم قالت: «إنه زوجي. لقد تركني عندما...»

وسكتت، فأكمل قائلاً برقة: «عندما مات ابنك؟» لقد ماتت مع جوي أشياء كثيرة... الأمل... الثقة والاحلام جميعاً... فحطمها ذاك. وأغمضت عينها تخفي بذلك، الغضب والألم اللذين تحملهما دوماً، الذكريات. «لقد أقام أليكس دعوة الطلاق في نفس اليوم الذي خرجت فيه من المستشفى.»

فتمتم سام بسباب خافت: «يا لانعدام الاحساس... إذ يهرب منك في الوقت الذي كنت فيه بأمس الحاجة إليه لكي يقف إلى جانبك.»

فعجبت ميغان لتعاطفه معها، ولتفهمه، كان من السهل الوثوق به، كانت بحاجة إلى الثقة، إلى شخص يسندها، وشعرت بأنها ترغب في سنده لها، فقط لو كان بامكانها أن تثق به... أن تثق بحكمها الذاتي. ولكن دماثة طباع أليكس جعلها تعلم مبلغ ما يمكن أن تدفعه من ثمن فادح، للأخطاء. وتابع سام ببطء: «إنني، فقط، أريدك أن تعلمي مقدار أسفي لتصرفي معك.»

فرفعت حاجبيها دهشة. ورأى، أيضاً، لمحة من جرح الكرامة في عينيها، فقال بسرعة: «أردت أن أقول إنني أسرعت في التصرف. لم يكن لدي الحق في هذا التصرف، وذلك بالنسبة إلى ظروفي الحالية، منذ ورثت هذين الطفلين، اصبح علي أن اختصر كل شيء... بما في ذلك تدريبي في العمل. ومع هذا أراني في بعض الأيام، لا اجد وقتاً للتنفس.»

فقالت بهدوء: «أو القيام بأشياء أخرى، إنني لم أرك قط تزاول رياضة الركض عند الصباح.»

«هل لاحظت ذلك؟» ولاح المكر في ابتسامته العريضة عندما احمر وجهها قليلاً، وفكر مسروراً في أنها كانت تراقبه. «ان بريان يستيقظ كثيراً اثناء الليل ما يجعلني غير مرتاح للنهوض باكراً لكي أزاول هذه الرياضة قبل ذهابي إلى العيادة، وأنا أحاول أن احضر إلى البيت عند الغداء اذا كان برنامجي يسمح بذلك. ان بإمكان الاطفال أن يعيدوا تخطيط برنامجك.» ذلك انه حتى التخطيط لانجاب طفل، قد غير من مجرى حياتها ومن طريقة نظرتها إلى الأمور.

فأومأ قائلاً: «ان ما أريد قوله هو ان الارتباطات تأخذ الكثير من الوقت مما لا استطيع توفيره، سواء كانت جادة ام غير ذلك. ومع ظروفي الحالية، منها حادث وقوع برايان على أثاث شرفتك الجديد، يبدو من غير اللائق دعوتك إلى موعد.»

«ولكن السينما...»

«إننا، في هذا، مجرد صديقين بحاجة ماسة إلى قضاء سهرة خارج المنزل.»

وعندما ابتسم، ادركت أن ليس بإمكانها أن تخذله. لقد سبق لهما المعاناة، هما الاثنين. وهما الاثنان يحاولان تأسيس مفاهيم جديدة لحياتهما، قالت: «لا بأس، يا سام. متى تريد الخروج؟»

«ما رأيك في الساعة السادسة والنصف؟ لا اظن بإمكاني الخروج لتناول العشاء حيث انني ساستدعي جليسة الاطفال في آخر لحظة.»

«هذا حسن.» كانت تريد أن تقول ان هذا أفضل. فهي غير مستعدة للخروج لتناول العشاء معه، ومع أن الذهاب إلى السينما لا تعد موعداً، إلا أنها كانت، على نحو ما، أشبه بذلك.

* * *

الساعة الخامسة والنصف وهو لم يعثر على جليسة اطفال بعد، لقد اتصل سام بالهاتف للمرة السابعة، ثم اخذ يحدق إليه بعنف لحظة طويلة، لم يكن يوجد في المدينة فتاة مراهقة لم تكن قد سبق ووضعت لنفسها برنامجاً لليلة السبت هذه.

ماذا عليه أن يفعل، الآن؟ إنه متلهف للخروج هذه الليلة مع ميغان، ما يجعله في غاية القلق. ولكن ما كان يقلقه هو كيف يتدبر أمر ذلك. «من سيمكث معنا؟» كان هذا سؤال بيكا، بلهجتها الطفولية. وكانت هذه إشارة إلى قلقها لخروجه.

فجذبها سام واضعاً إياها على ركبتيه. كان هذا شأنهما في كل مرة كان يخرج فيها. كانت ماتزال تذكر تلك الليلة التي خرج فيها ابواها ولم يعودا إليها وإلى أخيها. وبهذا، كان سام يخرج كثيراً إلى منزل جاك هندرسون لقضاء بعض الوقت في الحديث، وذلك فقط، لكي يثبت في ذهن بيكا أن ما كان حدث لوالديها لم يكن شيئاً عادياً يتكرر دوماً.

قال: «لا أدري يا حبيبتي، إن كل شخص مشغول هذه الليلة.»

«إذن، فعليك أن تبقى في البيت.»

تمنى لو يستطيع أن يقول لها انه، هذه المرة، بحاجة

قصوى إلى شيء من الراحة، ولكنه كان يعلم أنها اصغر من أن تفهم احتياجاته، ولكنها كبيرة إلى حد تشعر معه بجرح كرامتها إذ تفكر في انها عبء عليه، وهو لا يريدها أن تفكر في هذا على الاطلاق.

«ولكنني وعدت ميغان بأن آخذها إلى السينما.» وعاد ينظر إلى القائمة التي تحتوي على اسماء جليسات الاطفال، منتظراً حصول شيئاً ما فيجد فتاة تكون موضع ثقة، وترغب في الحصول على مبلغ لقاء جلوسها مع الطفلين عدة ساعات.

وتنهدت بيكا ثم قالت متثاقلة: «إذن، اظن أن بإمكانك ان تتصل بإيمالين.» قالت ذلك بصوت شديد الخفوت ما جعل سام يشتبه في انها تخفي عنه بعض المعلومات المهمة كان عليها أن تبلغه إياها قبل الآن.

سألها: «إيمالين؟»

فأومأت الطفلة قائلة: «قالت لي منذ مدة طويلة أن اخبرك بأنها تعرف فتاة اسمها جيل يمكنها أن تجلس معنا أحياناً.»

«وانت لم تبلغيني ذلك لأنك كنت تريدينني أن أمكث معك في البيت؟»

فزمت شفتها السفلى. وشعر هو بالالم لأجلها، فقد كان هو كل ما لديها الآن، فهي تخاف من أن تفقده، هو أيضاً، وتابع يسألها: «لماذا تخبرينني بذلك الآن؟»

فقالت: «لأنك وعدت ميغان.»

فاحتضنها بشدة وهو يقهقه ضاحكاً: «إذن، فأنت ستدعينني أخرج الليلة لأجل ميغان. لماذا؟»

«لأنها تحبني ولأن رائحتها حلوة.»

قال وهو يقبل رأسها، ثم يمد يده إلى الهاتف: «لا بأس يا اميرتي، فلنجرب ما إذا كانت جيل موجودة ويمكن الوثوق بها.»

وشعر بالرضى لترك طفليه في عهدة هذه الفتاة بعد مدح ايمالين لها، وانطباعه الخاص عنها. اغتسل ثم ارتدى ثيابه بسرعة قياسية، ولكنه كان قد تأخر عن الموعد المقرر. وعندما طرق باب ميغان، كان ينظر في ساعته بقلق.

بادرها وهي تفتح الباب: «آسف لتأخري.» وفكر وهي تقف عند المدخل في أنه تأخر سنوات...

يا ليته عرفها قبل أن يرث تلك المسؤولية عندما كان لديه الوقت الكافي لمعرفتها، ولم تكن هي في طور استعادة قواها بعد كارثتين اصابتاها هما موت طفلها، والطلاق من زوجها.

قالت له وهي تجلس في سيارته الرياضية قبل الساعة السابعة بثوانٍ: «يبدو عليك التعب.»

واطلق ضحكة جافة وهو يجيب: «ان افضل الخطط لا تعني شيئاً بالنسبة إلى طفل في الشهر العاشر من عمره. أثناء العمل، يأتيني مرضى هم آباء دون زوجات، أو أمهات دون أزواج، فأنصحهم بأن يخرجوا... يتعرفوا إلى آخرين يمكنهم التحدث معهم... ينشئوا علاقات صداقة... كانت هذه اجوبتي المعتادة لهم. وها أنذا أدرك الآن مبلغ تسرعي في إسراء نصيحة كهذه، حين يكون هناك اطفال.»

فقالت: «ولكن هناك كثيرون بإمكانهم أن يوفقوا بين اطفالهم وحياتهم الاجتماعية بنجاح.»

www.elromancia.com

فتأوه قائلاً: «ليس ثمة اكثر صعوبة من العثور على جليسة اطفال. فإن علي إما أن اجد واحدة يتمكن أبواها من إحضارها إلي والعودة لأخذها، وإما علي أن آخذها بنفسي وآخذ الطفلين معي رواحاً ومجيئاً كيلا اتركهما وحدهما في البيت، بينما يكره بريان بعنف قطع نومه.»

«هذا شيء صعب، ولكن لا بد أن بإمكان بيكا أن تساعدك نوعاً ما.»

«ليس بالنسبة إلى حياتي الإجتماعية. فهي تخاف من أن يكرر التاريخ نفسه معي، فأخرج إلى حيث لا أعود بعد ذلك مطلقاً كما حدث لأبويها، إن علي ان اضع مسألة خوفها الشديد ذاك، في حسابي.»

«لا استطيع تصور مبلغ صعوبة ذلك ولكن ينبغي ان تكون لك حياة اجتماعية. وعليها أن تتعلم ان الناس يخرجون ويعودون.»

«نعم، إنها ستنسى ذلك يوماً ما.»

فأومأت قائلة: «وإلى أن يحين ذلك اليوم، هنالك محل صغير أنيق يبيع اللبن المثلج بنكهات مختلفة قرب المسرح. لقد ذهبت إلى هنالك مرة واحدة، وصادف انهم كانوا يوزعون عينات للدعاية، إنها لذيذة الطعم جداً.» وعندما أدخل السيارة إلى الموقف، أشارت إلى محل صغير عبر الشارع. «ذاك هو. وهو يتأخر في الاقفال ليلتي الجمعة والسبت، ان بإمكاننا أن نتوقف عنده بعد خروجنا من السينما، لنأخذ معنا شيئاً منه لبيكا.»

فنظر إليها بدهشة: «أليس لديك مانع في العودة مباشرة بعد انتهاء الفيلم؟»

فهزت رأسها نفياً.

كان وهو يوقف السيارة ثم يسير بها إلى داخل دار السينما، يفكر في أنها امرأة محيرة حقاً، فهي تقدم احتياجات فتاة صغيرة، على متعتها الخاصة.

لقد كان، وميغان، وصلا إلى السينما متأخرين، حال ابتداء الفيلم، فوجدا مقعدين إلى جانب الجدار. ولكن سام وجد من الصعوبة تركز افكاره على الفيلم، وشغل عقله عن التفكير في معاناته من جراء دوره الأبوي.

لقد كانا اتفقا على حضور فيلم خفيف فكاهي، متجنبين الافلام العاطفية أو النفسانية المثيرة. كان الفيلم جيداً، أو على الأقل ما انتبه إليه من مشاهده، ولكن ميغان كانت في ذهول مستمر.

جعله جلوسه بقربها، يدرك ما هو مفقود من حياته. أصبح يتوق إلى امرأة يتناقش معها، امرأة يتحدث إليها في سكينة الليل... إلى يدٍ تساعده في حمل اعبائه.

إن ميغان تفهم معاناته، إنه يدرك مبلغ ما في قلبها من دفء وحب للآخرين، فإلى أي حد سيتمكن هو من الاهتمام بها...؟

وسرعان ما انتهى الفيلم، فخرجا من دار السينما ومن ثم صعدا إلى سيارته.

قالت بلهجة جافة وهو يدير محرك السيارة: «ان مصممي هذه السيارة لم يكن في ذهنهم شيء اسمه زواج أو أسرة.»

فضحك قائلاً: «نعم، لقد اشتريتها منذ سنتين، في تلك الأيام التي كنت اعيش فيها وحدي، ومازلت أحب قيادتها

وهي مكشوفة، وصوت الراديو ينبعث عالياً من محطة موسيقى الروك.»

فضحكت ميغان قائلة: «تعني الأيام الحلوة التي مضت.»

فاخذت تنظر إلى جانب وجهه وهو يخترق بسيارته زحام الخارجين من السينما لكي يقطع الطريق متوجهاً نحو محل بيع اللبن الرائب، كانت ابتسامته مليئة بالبهجة الخالصة، ان سهرته هذه في الخارج قد انعشت نفسه، ونفسها، أيضاً، كما شعرت، أحست بالسعادة وتجدد النشاط وهذا ما لم تشعر به منذ مدة طويلة.

شعرت بالمتعة في الضحك، وفي الشعور بخلو البال. إن ذلك ينسيها قلقها بشأن ما يخبىء لهما المستقبل، ليس ثمة بالنسبة إلى هذه اللحظة، سواهما، هي وسام.

وهكذا وجدت نفسها تشير إلى أنواع اللبن في الدكان سائلة سام أي نوع منها يظن أن بيكا تفضله، وفي النهاية، اختارت نوعين طلبت وضعهما في علبة واحدة.

قال لها سام وهما يعودان إلى السيارة: «إنك تفسدينها بالتدليل.»

فقالت: «انظر إلى مزايا عملي هذا من الناحية النفسية. إن بيكا ستبدأ بقرن خروجك من البيت بالأشياء السارة.»

فأشعل الراديو، رافعاً من الصوت وهو يتجه بالسيارة نحو البيت، حتى انه كشف سقف السيارة عندما طلبت منه ذلك، ضاحكة.

وفي المنزل، أصرّ عليها أن تدخل بنفسها إلى غرفة بيكا وتعطيها اللبن بيدها: «انك الشارية، وأنت التي ستقدمين لها ما اشتريته.»

«وإذا هي قرنت الأشياء السارة بخروجك معي أنا فقط؟ ماذا ستفعل حينذاك؟»

«حينذاك سأخرج معك على الدوام.»

هتفت بيكا وهي تنطلق خارجة من الباب بينما كانا يصعدان الدرجات نحو المدخل، هتفت فرحة: «ها قد رجعتما إلى البيت.»

فرفعها سام وقبلها بصوت عالٍ، وفتح الباب لميغان، وفي الداخل، انزل بيكا إلى الأرض، وبعد ان دفع لجيل، الفتاة جليسة الأطفال، أجرها، وجاء أبواها لأخذها، قال لبيكا: «لقد احضرت لك ميغان مفاجأة.»

ناولتها ميغان العلبة وهي تبتسم للفرحة التي بدت في وجه الصغيرة. وأرادت بيكا أن تذوق نوعي اللبن، لكي ترتاح في نومها فلا تتساءل عما عسى أن تكون نكهة النوع الثاني، وفي الصباح تنتظر استيقاظ خالها وإزعاجه بإلحاحها الدائم بأن يسمح لها بفتح العلبة الثانية.

واستسلم سام لرغبتها وهو يدور بعينيه كمن يشكو مبالغتها تلك، وتحايلها.

قال يخاطب ميغان بينما الطفلة تلتهم اللبن الرائب بمتعة بالغة: «ان الاطفال يتعلمون بسرعة.»

فقالت متهكمة: «هذا فقط لأجل علبة لبن أخرى.»

«ولكنها، يوماً ما، ستسألني عن الموعد الذي عليها أن تعود فيه إلى البيت، وإلى أي حد يمكنها أن تقصر تنورتها.»

فأومأت ميغان برأسها مفكرة، ان الحياة تتغير على الدوام، فالأطفال يكبرون، والكبار يزداد بهم الكبر. لا شيء

يبقى كما هو، وهذا يتضمن صداقتها مع سام. ستتغير ظروف حياة كل منهما، يوماً ما، أترى سيكون لها مكان في حياته؟

قفزت بيكا من كرسيها عند المائدة، وهي تقول: «انني متعبة.»

فساعدها سام في غسل وجهها، وغسل اسنانها بالفرشاة وتسريح شعرها، ولكن كان على ميغان أن تقرأ لها حكاية قبل النوم وذلك من الكتاب الذي سبق واهديتها إياه.

تكورت بيكا في سريرها الصغير، بجانب ميغان، بينما وقف سام عند العتبة ينظر إليهما، لقد اسبغت ميغان بهجة على هذا المشهد، فقد شع الدفء في ملامحها وهي تسمع ضحكات بيكا لأغانيها المضحكة، وترى أثار أناملها الصغيرة على الرسوم التي كانت هي رسمتها منذ أمدٍ طويل.

وعاد الألم يساورها وهي تتذكر أنها لن تنجب طفلاً مرة أخرى، في حياتها. ولكن الأسى لذلك، خففه هذه المرة، وجودها، هذه اللحظة، مع بيكا، إنها لحظة ستختزنها في ذاكرتها على الدوام. إن بإمكانها أن تصحب معها ذكريات جديدة، وبعد قبلة على الخد واحتضان من الطفلة لها ولسام، أطفأ هذا النور ثم اغلق عليها الباب، وبعد ذلك أوصل ميغان إلى بيتها المظلم.

كان هواء الليل طلقاً نقياً عابقاً بشذا براعم الأشجار، والحشائش النابتة بعد برد الشتاء.

قال لها وهما يصلان إلى الباب: «اشكرك لخروجك معي هذه الليلة.»

فأجابت: «لقد استمتعت بها حقاً.» واستمتعت بها كثيراً إلى حد أنها لم تكن تريد للمساء أن ينتهي. وقالت ببطء: «سام. هل فكرت قط في... في الزواج؟ أعني...»

فسألها بينما كانت تفتش عن كلمات توضح بها قصدها من هذا السؤال: «اتعنين لأجل الطفلين؟ لقد كنت فكرت بذلك كثيراً، في البداية، بعد أن قهرتني الأحداث؟»

«أستطيع تصور ذلك.»

«لقد تغيرت حياتي كلها، بطرفة عين، علاقاتي مع الآخرين... اصدقائي... توقفوا فجأة، عن الرد على مكالماتي الهاتفية وكانوا يعتذرون في كل مرة كنت اطلب منهم الخروج معي.»

فسألته بحيرة: «ألم يكن يحببن الأولاد؟» لم تكن تستطيع تصوره مرتبطاً بامرأة مختلفة بطباعها عنه.

فهز كتفيه: «لم يكن مستعدات لاحتضان أسرة خصوصاً واحدة منهن، كريستين، اخبرتني بأنها تشعر بأنني استعجل الأمور بيننا لكي نتزوج، فقط لأجد أماً للطفلين.»

«هل كان كلامها صحيحاً؟»

«ربما قليلاً. لقد فقد الطفلان والديهما، وشعرت أنا بأنهما بحاجة إلى اكثر من خال شغوف بهما، ولكنه لا يعرف شيئاً عن العناية بهما.» واطلق ضحكة جافة. «لقد بقيت اسابيع حتى تعلمت كيف أربط شعر بيكا.»

«ثم تعلمت ذلك؟»

«نعم، ولكن ما قالته كريستين جعلني اعيد التفكير بما كنت اقوم به. كنت، والطفلان، وما زلنا، نكافح في سبيل التعود على بعضنا البعض، وهذا يكفي لكي لا نفرض

عليهما انساناً آخر عليهما أن يتعودا عليه، وهكذا، علينا، حالياً، ان نمضي في طريقنا معتمدين على أنفسنا رغم العثرات.»

سألها وهي تفتح بابها: «وماذا عنك أنت؟ ما الذي يحمله المستقبل لميغان ماكليستر بالنسبة للارتباطات؟» لم يكن واثقاً من أنه يريد أن يسمع جوابها، ولكن السؤال لا يمكن إنكاره، وحيث انها قد فتحت الآن هذا الموضوع، فهو يريد أن يعلم ما إذا كانت ستهتم بإنشاء علاقة جادة من هذا النوع، ولكن تصوره لها مع رجل آخر، لم يعجبه.

«أظن أنني مازلت غير مستعدة للتفكير في هذا الموضوع. عندما رحل أليكس... حسناً، كان مواجهة هذا الأمر صعباً جداً عليّ.»

فتوتر سام، لقد تمنى لو استطاع ان يهشم وجه اليكس ذاك للألم الهائل الذي سببه لميغان. وقال دون أن يفكر في مدى الغضب الذي شعر به نحو زوجها السابق: «لقد تركك في أسوأ الأوقات.»

أومأت قائلة: «إن اكثر ما حطمني هو أن اعرف أنه لم يحبني قط... ليس بالشكل الذي كنت أظن. كنت أظنه سيقف بجانبي، في المحن، على الدوام، ولكنني عندما احتجت إلى شخص استند إليه، لم يشأ أن يواجه المشكلات.» وتنهدت. «لم أكن افهمه جيداً قط.»

«هذا ما يحدث. فنحن نظن أننا نعرف شخصاً ما، وإذا حصلت محنة ترينا أننا كنا مخطئين.»

ما أحسن ما عرفته عنه، فهو قد اظهر لها اهتماماً بالغاً بها، وأبدى لها من الرعاية ما لم تره من أليكس قط. ولكن لم

تحدث محنة بعد لتكشفه... إنما لماذا يكون لها الحق في ان تنتظر من سام ان يكون بجانبها عند الحاجة، أو أن يحمل بعض الأعباء عنها...

قالت وهي تدفع باب بيتها: «حسناً، أظن الوقت قد تأخر...»

«نعم، معك حق، وأنا لا أريد أن أترك الطفلين وحدهما مدة طويلة.»

وفي ضوء القمر، نظر إلى وجهها الجميل، كان النسيم يتلاعب بشعرها بخفة. وكانت لمحة من الحذر الممزوج بالكآبة، تبدو في عينيها.

وعاد يحدق فيها مرة أخرى، يملأ ذاكرته بشكلها هذا في ضور القمر، ثم خرج.

أخذت ميغان تنظر إليه يعبر فناءها، وقد وضع يديه في جيبيه. ثم استدارت صاعدة إلى غرفتها حيث استلقت على سريرها تفكر فيه. ومضى وقت طويل قبل أن يغلبها النوم.

الفصل السادس

لم تكن ميغان تلاحظ تلاعب النسيم بصفحات مجلة المناظر الطبيعية التي كانت ملقاة على ركبتيها، لقد كانت أخذت المجلة وفنجان القهوة خارجة بهما إلى الشرفة باكراً ذلك الصباح. ولكنها لم تمس قهوتها التي بردت بينما تخلت هي عن تصميمها الفاتر على وضع اصص الورود في شرفتها، لكي تعود بأفكارها إلى سام الذي حلمت به طوال الليل. كان خيالها مليئاً بتصور نفسها معه، يضحكان ويلهوان.. ثم كان هنا الطفلان، بينكا وبرايان اللذان لم يكونا بلغا سن الدراسة بعد. وأطفال آخرون، وفتاة وصبي، والاثنان لهما غمازتا سام وعيناها هي، ولكن هذا لن يحدث أبداً.

تنهدت وهي تحاول أن تعود بأفكارها إلى واقعها الحالي، حيث يمكنها الاستمتاع بأشعة صباح الأحد، كما كان عليها أن تتدبر أمر ورودها. وكذلك زهور الأضاليا، وهي بحاجة إلى الكثير من العناية. وهذا يناسبها تماماً، إن إزهارها رائعة الشكل والشذا، وستستمتع بالاعتناء بها، ستغرس الورود في أصص ضخمة، واحدة في كل زاوية من الشرفة، أما الاضاليا فستمتد في الأرض على جدران المنزل.

«تلك هي ميغان، مرحباً ميغان.»

رفعت ميغان رأسها حين سمعت صوت بيكا يناديها، من

خلف السياج. كانت رفيقة بيكا تقف بجانبها والتي كانت ذات عينين عسليتين واسعتين وشعر قاتم مستقيم، سألتها بيكا: «ماذا تفعلين؟»

«أفكر بالزهور، ماذا تفعلين هذا الصباح أنت ورفيقتك؟»

فتبادلت الفتاتان نظرة متآمرة، هزت فرانسي رأسها بينما أومأت بيكا بقوة، ثم تقدمت خطوة نحو ميغان، بينما بقيت فرانسي مكانها، ولكن بيكا أمسكت بذراعها تشدها إلى الأمام، وحاولت ميغان أن تخفي ابتسامتها وفضولها. من المؤكد أن الفتاتين كانتا تريدان شيئاً ما وإبنة أخت سام، ذات الوجه البريء، كانت هي المحركة للأمر، وانتظرت بينما اقتربت منها الفتاتان.

صعدتا إلى الشرفة، ثم قالت بيكا، بينما فرانسي تومىء برأسها بخجل: «أنا وفرانسي نريد منك أن تعلمينا كيف نصنع كتاباً.»

فرددت ميغان دون أن تنتبه إلى تصحيح الكلمة لغوياً: «تصنعان كتاباً؟»

«نعم، مثل الكتاب الذي كنت أهديتني إياه، قال خالي سام انك رسمت الصور بنفسك وكذلك نظمت الأغاني، إننا نريد أن نتعلم كيف نصنع ذلك، نحن أيضاً.»

أمعنت ميغان النظر في وجهي الفتاتين، دون أن تتكلم، كيف بامكانها أن تعلم فتاتين في الخامسة من عمرهما كيف ترسمان وتنظمان اغاني الأطفال؟ وهل هي تريد أن تحاول ذلك؟ ولكن كيف بامكانها ان ترفض بينما الاثنتان تقفان أمامها منتظرتين راجيتين؟

أخيراً قالت لهما: «لا أدري إن كان هذا العمل سينجح.»

فتوسلت إليها بيكا قائلة: «أرجوك، إننا سنتصرف بشكل حسن جداً.»

فضحكت ميغان عندما أومأت فرانسي موافقة، وقالت: «لا أدري كيف سنسير في عمل كهذا، وهل عندي المواد اللازمة له، حتى انني لم أنظر داخل صندوق أدوات الكتابة والرسم الذي لدي، منذ...» وسكتت قبل أن تقول، منذ مات جوي، فلا الفتاة ولا ميغان بحاجة إلى تذكر الأشياء المحزنة.

«لقد قالت نعم.» وأخذت الفتاتان تقفزان فرحاً، بينما قالت ميغان، وهي تنظر إلى كل من الفتاتين بالتناوب: «أنا قلت نعم، ولكن عليك أن تسألي خالك يا بيكا إذا كان يقبل، وأنت إسألي أمك يا فرانسي.»

فاختفت الفتاتان قبل أن تطرف عين ميغان، فضحكت لحماسهما هذا وهي تحمل فنجان القهوة والمجلة، ثم تدخل المنزل. وفي غرفة البياضات وجدت صندوق أدوات الرسم، فحملته ووضعته على المنضدة التي تفصل بين غرفة الطعام والمطبخ.

كان الصندوق يحتوي على كثير من الذكريات، تذكرت والديها العمليين اللذين أثار حيرتهما واستغرابهما ميولها الابداعية هذه... وأصدقاءها في الكلية الذين عجبوا لاختيارها دراسة مادة المحاسبة كمهنة، ووليدها الذي أنجبته لكي يدخل في صراع مع الموت، ثم ينهزم.

ذكرياتها الأخيرة مازالت تؤلمها، ولكنها تدرك الآن أن الألم كان يخف يوماً بعد يوم. وقد لعب سام دوراً فعالاً

في ذلك، إذ أمكنها، معه، أن تفصح عن مشاعرها كما شاركها مشاعره هو الآخر. لقد تعاطف الواحد منهما مع الآخر.

وقطع عليها رنين الهاتف مجرى أفكارها. ولم تدهش وهي تجد سام في الطرف الآخر من الخط، إنما ما أدهشها هو تأثير صوته عليها، كان دافئاً وسريعاً قليلاً.

ولكنها سمعت صوت برايان يبكي مرة أخرى.

سألها من دون مقدمات: «هل فقدت عقلك؟ طفلتان في الخامسة، ترسمان؟»

فأجابت: «إنني متشوقة لأرى ذلك.» كانت حقاً تتطلع إلى ما ستشعر به من تسلية وهي تحاول تعليم بيكا ورفيقتها.

فقال بصوت يحتوي بنبرة عدم تصديق: «لا بأس، إذا كنت واثقة... لقد طلبت من بيكا القدوم لتناول الغداء.»

فنظرت ميغان في ساعتها: «ليس ثمة وقت لذلك، ما رأيك في شطائر الفول السوداني والجلي؟»

سادت لحظة صمت عاد بعدها يقول: «هل لديك هذا؟ لا أظنك تعنين أنك تأكلين حقاً هذا الخليط المبتكر؟»

«إنني لا آكله فقط، يا دكتور آرمسترونغ، وإنما أحبه أيضاً.»

أدركت، بشكل ما، أنه كان يبتسم وهو يقول: «حين أفكر في أنني ضمنتك لدى والدة فرانسي...» وهنا أطلق برايان صرخة عالية، كما أصبح بكاؤه أعلى وأكثر غضباً، وتنهد سام.

فسألته بعطف: «أهو يوم آخر من تلك الأيام؟»

«آه، لقد استيقظ في الرابعة هذا الصباح، ولم يسكت حتى الآن.»

فذاب قلبها لأجل سام، فقالت له: «لماذا لا تحضره إلى هنا؟ ربما اذا هو أخذ يتفرج على بيكا وفرانسي، يلهى عن ألم التسنين.»

«كلا، الطفل يحتاج إلى عناية كبيرة، وبيكا تشعر بالحزن إذا هي لم تستطع مساعدتي في العناية به. إنها بحاجة إلى اللهو والتصرف أحياناً كطفلة، هذا إلى أن برايان سيحاول أكل الورق والدهان، دون أن يفهم إذا أنا زجرته لذلك.»

فأطلقت ضحكة بدت في سمعه رقيقة رخيمة، ثم قالت: «لقد نسيت عادته في أكل ما يراه، إذن، ربما فيما بعد، بعد أن ننهي عمل هذا اليوم.»

فنظر سام إلى الطفل التعس وهو يضرب الأرض بكلبه المحشو. من المحتمل أن يستمر على هذا المنوال طوال النهار، إنه لا يظن أن بامكانه مواجهة ذلك بمفرده، ووجوده مع ميغان هو أكثر راحة وبهجة مما يعانيه حالياً، هذا إلى أنه، في الحقيقة، مستعد لدفع أي ثمن في سبيل أن يراها دائماً.

قال مفكراً في أنه سيكون معها: «سأجعله يأخذ غفوة بعد برهة، ثم أحضره إليك حوالي الثالثة.»

«هذا عظيم.»

أقفل الهاتف وهو يفكر باسماً في أنها تبدو وكأنها تعني ذلك حقاً، وتلاشت ابتسامته وهو يتحول إلى برايان فيحمله ثم يهدده. في أوقات كهذه، كان سام يتساءل عما إذا كان برايان مازال يفقد أمه.

أيمكن أن يكون ذلك شبيهاً بافتقاد سام لميغا؟ لقد فكر فيها مدة طويلة بعد أن أوى إلى فراشه الليلة الماضية.

وهذا الصباح لم يستطع مزاج برايان السيء، لا ولا تكرار تحذيره لنفسه بعدم الإنسياق وراء عاطفته، في أن يخمد من شوقه إليها. ولم يستطع السيطرة عليه إلا بمشقة لم يسبق له أن فكر في إمرأة في مثل ظروفه هذه، وبهذه القوة، منذ مدة طويلة.

ولم يشعر إلا وقبضة برايان تنهال على وجنته بضربة مفاجئة، فأمسك سام اليد الصغيرة يقبلها، قائلاً: «شكراً، إنني بحاجة لذلك لكي يعيد إلي عقلي.»

ولما رأى أن الهدهدة لم تنفع الطفل، وهو لن يخاطر بتسبيب الألم لها أو للطفلين وذلك بالاندفاع إلى ارتباط معها قبل أن تستقر أموره. فقد عانوا جميعاً بما فيه الكفاية وليسوا بحاجة إلى إضافة مآسي جديدة منه.

ضربه برايان على ركبته بكلبه المحشو، ما أعاد سام إلى واقعه المزعج. وفكر في الغداء، فحمل الطفل إلى المطبخ. لقد سبق واستعمل العلاج الذي يوصي به كتاب (دكتور سبوك) في فترة التسنين. ولكن لم ينفع شيء منه هذا النهار. ربما إذا حشا فم برايان بالطعام، يبقيه هادئاً فترة قصيرة.

فكر، باسماً، في ميغان وشطائرها المحشوة بالفول السوداني والجيلي. إنه يكره هذا الخليط حتى انه لا يستطيع النظر إليه، ولكن، لأجل ميغان...

وقال يخاطب برايان وهو يضعه في كرسيه العالي: «نعم، يا صديقي.. إنني، لأجلها، أقبل تقريباً...»

فأجاب برايان باكياً: «مو... مو..»
«نعم، تقريباً... تقريباً،في الواقع.»

* * *

ألقت ميغان نظرة شاملة على الفوضى في مطبخها يتملكها إحساس من أنجز شيئاً، ذلك أنه تحت إشرافها استطاعت بيكا وفرانسي اداء رسومات لأشجار وأزهار متوسطة الجودة، وذلك قبل أن تمنحهما أذناً بالمتابعة بمفردهما. وكانت الأشكال التي رسمتاها في المنظر الأمامي لأناس وحيوانات أليفة لا تكاد واضحة المعالم.»

سألت بيكا: «هل هذه التي في السماء هي طيور؟»

«إنهما أمي وأبي، لقد قال لي ذلك خالي سام.» وأشارت بفرشاتها إلى شكل ما في المنظر، قائلة: «وهذا خالي سام، إنه سيرعاني ويصبح أبي الجديد.»

«أحقاً؟» كان هذا كل ما أمكنها قوله، لقد أراد سام أن يكون الطفلان له قانونياً، كان عليها أن تعلم أنه ما كان ليسلك طريقاً غير مكتمل.

وتابعت بيكا: «وعندما يقول له القاضي ان بامكانه أن يرعاني وبرايان، سنكون، عندذاك، أسرة حقيقية.»

وأشارت إلى شكلين صغيرين في الصورة، ثم إلى شكل آخر أكبر حجماً. «هذان أنا وبرايان، وهذه أمنا الجديدة. قال خالي سام انه ربما سيكون لنا أم، يوماً ما، وأخوة وأخوات.»

«أحقاً؟» رددت هذه الكلمة كالببغاء وهي تستوعب ما

تحدثها به بيكا، لقد آلمها في الصميم أنها لن تكون أبداً جزءاً من ذلك المنظر... جزءاً من مستقبل بيكا.

أخذت الفتاة تثرثر عن الأسرة النامية التي تريدها وكيف سيكون لها اخوة صغار تلعب معهم وتعلمهم كيف يربطون أحذيتهم. ومع كل كلمة كانت تقولها بلهفة، كان قلب ميغان يغوص أكثر فأكثر.

يجب ألا تحرم بيكا من الأسرة التي تتوق إليها، وليس بامكان ميغان أن تمنحها إياها، وتساءلت ميغان عما يجعل من هذا مشكلة، وما الذي تريده هي؟

سام. إنها تريد سام. تريد ان تكتشف طريقة حياته. تريد التعرف إليه عن قرب.

ولكن ذلك سيكون كارثة، ألم تعلمها الحياة أن الناس يتغيرون بتغير الظروف؟ فحالياً، سام يتعاطف مع مصيبتها بابنها، ولكنه لا يعرف القصة بأكملها. كيف سيكون شعوره عندما يعلم أن ليس بامكانها أن تمنحه الأخوة والأخوات الذين وعد بيكا بهم؟

لم تكن تريد أن تعرف، وأخذت تساعد الطفلتين على تنظيف المكان وتنظيمه. لم تكن تستطيع احتمال التفكير في كيف سيخبو بريق عينيه عندما تخبره. لم تكن تستطيع احتمال التفكير في أنها ستسمعه يتحدث عن لهفته إلى الشيء الذي لن تتمكن من تقديمه له... الا وهو الاطفال.

كلا، إنها لن تخبره، ليس ثمة حاجة لذلك، وهي لن تسمح لعواطفها الناشئة نحوه، بأن تنمو.

سألتها فرانسي: «يمكنني أن آخذ الصورة التي رسمتها إلى بيتنا لأريها لأمي؟»

«طبعاً، ولكن إنتبهي لها لأنها مازالت رطبة.»

إندفعت فرانسي خارجة من الباب الأمامي، ولكنها ما لبثت أن توقفت، ثم رفعت بصرها إلى ميغان: «يجب أن يراقبني أحد وأنا أعبر الشارع.»

فقالت لها ميغان: «أنا سأراقبك.»

وخرجت تقف في الشرفة تنظر إلى الفتاة إلى ان فتحت هذه باب منزلها ودخلت، عند ذلك خرجت امرأة طويلة القامة قاتمة الشعر ثم لوحت بيدها إلى ميغان تحييها، فلوحت هذه لها بيدها، بدورها، وهي ترى ان والدة فرانسي تبدو ودودة. وتمنت لو تحصل لهما فرصة للتعارف.

كانت تهم بدخول منزلها عندما سمعت ضجة جعلتها تستدير نحو باب منزل سام، كان يناضل في حمل برايان وكل المعدات التي يحتاجها المرء لرحلة طويلة مع طفل، حتى ولو كانت الرحلة فقط إلى البيت المجاور.

نادت ميغان بيكا، ثم هرعت الاثنتان لتعاوناه في لملمة الاشياء التي كانت سقطت منه، فحملت بيكا كيس الحفاظات بينما حملت ميغان كرسي برايان العالي، ولكن هذا وقعت أنظاره عليها فكاد يقفز من بين ذراعي سام، مادأ ذراعيه نحوها، فأخذته إليها بينما حمل سام الكرسي، وكانت عينا الطفل حمراوين وأنفه يسيل بغزارة.

سألت سام: «ألم يرقد قليلاً؟»

«أبداً.»

لقد انبأتها هذه الكلمة المختصرة التي تمتم بها، عابساً، بكل شيء، كان مرهقاً، مستنزف المشاعر، شاعراً بالإحباط إلى درجة الصراخ.

وبرفق، اخذت تمسح الدموع عن وجنتي برايان كما مسحت أنفه. ثم سألته برقة: «هل هذا أحسن؟»

فأومأ برأسه، ثم أراح رأسه على كتفها، واضعاً إبهامه في فمه.

ففغر سام فمه ذاهلاً: «كيف فعلت هذا؟»

ضحكت بيكا قائلة: «لقد قلت لك إنه يحب ميغان اكثر من كل شيء.»

فزمجر هازلاً، ما جعل بيكا تضحك وهي تتقدمهم بمرح وهم يعودون نحو منزل ميغان، وفي الداخل، رفع برايان رأسه يشمل ما حوله بنظراته، وحين اكتشف الأرنب المحشو ملقى على المقعد الهزاز، مد يده نحوه. فجلست ميغان على ذلك المقعد، وأجلسته على ركبتيها والأرنب على ركبتها الأخرى وهي تتأرجح في المقعد. وفي الوقت الذي أنهت فيه بيكا عرض الرسم، الذي انجزته، على خالها، كان برايان قد نام.

تأوه سام قائلاً: «انني مستعد لدفع أي شيء، في سبيل أن اجعلك تقومين بذلك أربع مرات يومياً.»

«يا لسام المسكين، لقد اتعبك كثيراً.»

أومأ قائلاً: «انت وايمالين الشخصان الوحيدان اللذان يمكنكما تهدئته ومواساته عندما تبدأ اسنانه بإيلامه. وهذا يجعلني اتساءل عما إذا كان ما يزال يتذكر أمه.»

قالت بيكا برقة: «أنا اتذكرها.»

جذبها سام يضعها على ركبته وهو يبتسم لها بعطف. «ما الذي تتذكرينه، يا حبيبتي؟»

«كانت تحمل برايان طوال الوقت، وتهدهده.» وأراحت رأسها على صدر خالها. «وكانت تغني له.»

فسألتها ميغان والألم يعتصر قلبها: «وهل كان هو يحب ذلك؟»

«كان غالباً يتقيأ عليها.»

فضحك سام، وعندما سمع ميغان تضحك هي أيضاً، التقت عيناه بعينيها لحظة طويلة، كان بينهما شعور مشترك... حميم. وتنفس بعمق وهو يكتم ما تملكه من حنان قوي إليها.

قالت ميغان بابتسامة رقيقة: «حسناً، من حسن الحظ أن برايان قد تجاوز تلك المرحلة.»

فقالت بيكا باشمئزاز: «نعم، التقيؤ هو شيء سيء.»

فضحكت ميغان بهدوء. وأخذت تمعن النظر في خطوط الإرهاق المحفورة على جبين سام، وقالت: «قبل ان يتشعب الحديث، ما رأيك في أن تترك لي الطفلين، وتذهب إلى غرفتك في غفوة قصيرة؟»

فأخذ يفكر في ذلك لحظة طويلة. كانت الفكرة جيدة لا تقاوم. ولكنه في النهاية جلس على الأرض بجانب الكرسي الهزاز وهو يتنهد راضياً: «بل أفضل البقاء هنا...»

أراد ان يكون معها. فهو يشعر بالوحدة بعيداً عنها، ويبدأ بالتفكير في كل ما تفتقده حياته. ألا وهو ميغان، لقد نسي النوم الهانيء. وكان مستغرقاً في تصور بهجته، عندما جذبته بيكا من قميصه قائلة: «أنا جائعة.» فتذكر أنه هو أيضاً لم يكد يمس غداءه وهو يحاول تهدئة برايان، فقال: «وأنا أيضاً، ما رأيك في أن نحضر طعاماً من مطعم صيني؟»

فهتفت فرحاً: «آه، دجاج وسرطان البحر؟»

نظر سام إلى ميغان فكاد يقف قلبه عن الخفقان إزاء الإبتسامة الدافئة الكئيبة التي كانت على شفتيها وهي تحدق في الطفل الراقد على ذراعيها، وتملكته الرغبة لانهاء آلامها ببالغ قوتها، ما جعله يشعر بالدوار. كلما حاول ان يبعد مشاعره عنها أو يكبحها، ازدادت هذه المشاعر قوة.

سألتها بيكا: «ماذا تريدين ان تأكلي يا ميغان؟»

«أنا؟ لا اظن خالك كان يقصد...»

فاصر قائلاً: «بل كنت اقصد، فقد جعلت من ابنة أختي فنانة حقيقية، وخففت من آلام ابن اختي حتى استطاع النوم ومن ثم انعمت علي بلحظات من السلام والصحبة السارة.»

فاحتجت بيكا قائلة: «وصحبتي أنا سارة أيضاً.»

فقبلها في جبينها قائلاً: «انك الافضل، وإنما كنت اعني صحبة الكبار.» وأمسك بأنفها يهزه، قائلاً وهو ينظر إلى ميغان: «على كل حال، ان أقل ما يمكنني عمله هو أن اشتري عشاء من عند دراغون حيث يضيفون إليه من البهارات ما يجعله لذيذ الطعم.»

فقالت وهي تبتسم له: «هذا يبدو حسناً.»

شعر برغبة وهو يراها تحمل برايان بكل هذه الرقة والحلاوة، وتبذل الكثير من نفسها ووقتها لبيكا... بدت له في منتهى الكرم والاهتمام بالغير رغم هشاشتها وضعفها، جعله يشعر برغبة في تخفيف آلامها، وادخال السلوى إلى نفسها بحبه.

ولكن، ليس له الحق في كل هذا. فقد نالت من الآلام ما يكفي، وهو لن يسمح لنفسه بالدخول في حياتها قبل ان يتأكد تماماً من أنه سيستطيع اسعادها.

انزل بيكا إلى الأرض، ثم وقف متجهاً نحو هاتف ميغان حيث اتصل بالمطعم طالباً اعداد طعام له بحيث يجده جاهزاً عندما يأتي، بعد حين، لاستلامه، وعندما اعاد السماعة إلى مكانها، قالت بيكا: «سآتي معك، انهم دوماً يعطونني حصة زائدة من الكعك.»

فقال وهو يراقب أي لمحة من التردد قد تبدو على ميغان: «ولكن ربما تحتاج ميغان بعض العون بالنسبة إلى برايان.»

نظرت إلى الطفل الراقد، ثم هزت رأسها قائلة: «سنكون على مايرام، لاظنكما ستغيبان طويلاً.»

«نصف ساعة على الأكثر.»

وضع كيس الحفاظات بالقرب من كرسيها، ثم فرش بطانية برايان على الأرض، في حالة ارادت ان تمدده عليها.

وعند خروجهما، عدلت من وضع الطفل بين ذراعيها، برفق، ثم استقرت في جلستها في الكرسي الهزاز، بهذا الوضع أصبح برايان اكثر راحة، وروعة.

فكرت في طفلها، هل كانت اصابعه طويلة رقيقة أم سمينة؟ هل كان شعره سيأخذ لون شعرها البني، أم سيكون قاتماً كشعر أليكس؟ هل كانت فترة التسنين ستمر به براحة وهدوء، أم أنه كان سيحملها على سهر الليالي كما يفعل برايان مع سام؟ سام. وتنهدت بعمق وهي تفكر كيف ان

مشاعرها نحوه قد أخذت تخرج من سيطرتها تماماً كعربة قطار مشحونة بالاحزان قد افلتت ومضت رأساً، لتصطدم بالواقع الهائل، انها عربة لم تستطع توقيفها.

ما الذي جعلها تفكر في أن بإمكانها ان توثق عرى صداقة حلوة سهلة مع سام؟ لقد كانت تخدع نفسها لا غير، كانت تريد شيئاً اكر من الصداقة.

ماذا عن الأخوة والأخوات الذين وعد سام بيكا بهم؟

تحرك برايان قليلاً، ثم عاد إلى النوم. وشمت هي رائحة بودرة الاطفال المنبعثة منه، واستمتعت بشعورها به بين ذراعيها، ولامست بشرته الناعمة... كانت تريد اختزان كل هذه التفاصيل في ذاكرتها...

وكانت ما تزال تهدهد برايان عندما عاد سام، وللحظة خاطفة، ساورتها أمنية هي أن هذه هي أسرتها التي طالما هفا إليها فؤادها، ولكن هذه الامنية سرعان ما تلاشت. إن سام وبيكا يعلمانها بأن عليها أن تعيش حياتها، وأن الزمن أقصر من أن يمضيه الانسان في الحسرة على ما فات.

وضع الاثنان ما احضراه من اطباق، على المنضدة التي تفصل المطبخ عن غرفة الطعام، وهما يقرآن محتويات كل طبق يخرجانه من الكيس، وفجأة، ساد الصمت، فسألتهما حائرة: «هل ثمة شيء؟»

فقال سام: «ليس لديك مائدة في المطبخ، اظن من الأفضل ان نأخذ كل شيء إلى بيتي.»

قالت: «ولماذا تحمل نفسك كل هذا العناء؟ إننا سنأكل على الأرض، ان هناك غطاء مائدة من البلاستيك في الدرج الثالث بجانب الثلاجة.»

وسرعان ما كان يبسط الغطاء الواسع على الأرض، ويعد الأطباق. واستيقظ برايان على رائحة الطعام، ثم طلب حصته في هذا الاحتفال... شيئاً من الأرز... بضع لقيمات من دجاج بيكا ولب الخبز.

بدا ان النوم قد حسن من مزاج الطفل، فقد ضحك ولعب لعبته المفضلة والتي هي (إقبض عليّ إذا استطعت) وعجبت ميغان لسرعته في الحركة والهرب. وعندما كانت بيكا تركض خلفه، كان يصرخ مسروراً، ثم يجري مهرولاً إلى ميغان قبل أن تمسك به أخته، فيتسلق ركبتيها ثم يخبىء وجهه في صدرها. وكانت ميغان، عندذاك، تضمه إليها، شاعرة بسعادة كبرى وهي تراه يندفع نحوها لكي تنقذه من بيكا، ياله من عزيز غالٍ. ولكن سرعان ما كان على سام أن يأخذه وأخته إلى بيتهم. وعندما أخذوا يجمعون حاجيات برايان ويعيدونها إلى كيسه، قالت بيكا: «اني أحب تناول الطعام على الأرض.»

فضحكت ميغان: «لقد رأيت في الجريدة صورة اعجبتني لمنضدة معروضة في اوكازيون، وسأذهب لإلقاء نظرة عليها غداً بعد خروجي من عملي.»

فقال سام: «إذا أنت صممت على شرائها، فلا تدفعي أجرة احضارها إلى هنا، سنحضرها في سيارتي الفان.»

«الفان؟ لا اظنك تعني تلك السيارة الرياضية الصغيرة التي ذهبنا فيها إلى دار السينما؟»

فقالت بيكا وهي تحتضن ميغان وتقبلها مودعة: «ان الفان كان لأمي.»

قال سام وهو يضع يلبس قدمي الطفل حذائه، ثم يحمله

ويناوله لميغان: «إنني استعمل الفان حين اخرج مع الطفلين. أما السيارة الصغيرة فأوفرها للمواعيد المهة.»

فانفجرت ميغان ضاحكة، هذا الرجل لاسبيل إلى اصلاحه... فقد كان بالغ الروعة والحساسية، وبالغ الجانبية بالنسبة إلى مشاعرها.

www.elromancia.com

الفصل السابع

سألت ليز ميغان وهما تتناولان طعام الغداء يوم الاثنين: «هل ستأتين معنا؟»

وعندما لم يجب أحد، رفعت ميغان بصرها عن طبق طعامها الذي كان يحتوي على سلطة ودجاج مقلي، وكانت هناك ثلاثة أزواج من الأعين النسائية تحدّق فيها.

لاحت على شفتيها شبه ابتسامة اعتذار لصديقاتها الجديدات. كان هذا النهار هو الأول منذ اسابيع، الذي تمكنت فيه هاته الزميلات الأربع من الخروج من المكتب لتناول الغداء معاً.

قالت: «آسفة، لقد شرد ذهني.»

شرد ذهنها إلى سام، إلى شعورها بفراغ بيتها بعد خروجه، وتنهدت، فقالت جولي وهي الجالسة إلى شمالها: «إنه تنهد المغرمين.»

فأضافت كيلي: «هذا مؤكد.»

قالت جولي: «ثم انظرن إلى التعبير الذي يكسو وجهها.»

فاحتجت ميغان قائلة: «لم يتغير في وجهي شيء.»

تبادل الثلاثة النظرات، ثم قلن بصوت واحد: «هائمة.»

فأخذت ميغان تحدق في كل واحدة منهن. كانت كلماتهن قريبة من الحقيقة. ثم قالت: «غيرن الموضوع.»

قالت كيلي ضاحكة: «أووووه... سريعة التأثر.»

قالت ليز مؤنبة: «حان وقت العودة إلى العمل، أيتها

السيدات، فميغان غير مستعدة بعد لإفشاء سرها، وما علينا سوى أن ننتظر...»

أضافت الفتاتان: «ونراقب.»

كانت الفتيات الثلاث من الفضول والتطفل بحيث حمل ميغان على الضحك وهي تقول: «مع صديقات مثلكن، لا حاجة لضجيج المتطفلين.»

فتقبلن هذا النقد بمزاج حسن، و قالت ليز: «ان العمل في المكتب فاتر ممل، يا ميغان والآن وقد خف زحام موسم الضرائب، فقد أصبح لدينا وقت كافٍ للتطفل.»

«وأنتن تقمن بهذا بشكل ممتاز.»

فابتسمت ليز لهذا المديح الساخر، وقالت: «انه التمرين. والآن، هل نحن مستعدات للذهاب إلى دار السينما الليلة؟»

فأعلنت كيلي وجولي الموافقة، ونظرن جميعاً إلى ميغان التي كانت تتمتم بالموافقة بفتور.

قالت ليز: «إذا كان لديك موعد، فنحن متفهمات لهذا.»

فقالت ضاحكة وهي تخرج من حقيبة يدها قصاصة من جريدة: «هذا هو موعدي.»

فصرخت جولي بذعر: «منضدة مطبخ؟»

مالت كيلي تتأمل القصاصة: «ارجلها جميلة.»

فضحكت ميغان: «شكراً. أريد أن أرى إن كانت هذه الارجل تبدو بهذا الجمال شخصياً.»

فتبع ذلك ضحكات من القلب. وقالت ليز ناظرة إلى ساعتها: «لا بأس. إننا سنذهب من المكتب لنفحص تلك المنضدة، ثم نتوجه إلى دار السينما. إنه دور كيلي في قيادة السيارة.»

رغم استمتاع ميغان بصحبة صديقاتها، فقد كانت تفضل قضاء الأمسية مع سام. لقد أدركت ذلك حالما عادت لتجلس خلف مكتبها. ملأت ابتسامته الدافئة أحاسيسها وأفكارها إلى حد لم تعد تعرف معه ما عليها أن تفعل. لم تعد تستطيع احتمال فكرة خلو حياتها المقبلة من وجوده.

كان خروجها هذه الليلة مع الفتيات، هو بالضبط ما كانت بحاجة إليه لكي تستعيد تقييمها الصحيح للأمور، لكي تحول أفكارها إلى اشخاص غيره، وإلى امكنة غير البيت.

لقد أدركت، عندما أنهت عملها عند العصر وخرجت لتقابل صديقاتها امام دار السينما، انها تستمتع حقاً بوجودها مع سام. وقد ابتدأ الخوف يتملكها من ان صداقتهما لن تكون كافية ابداً. ولكن اي شيء اكثر من هذا كان مستحيلاً.

كانت تعرف كل هذا، فلماذا إذن تمنت، بعد شرائها منضدة المطبخ ومنضدتين صغيرتين لغرفة الجلوس، لو كان سام هناك معها؟

ولماذا هي الآن تتمنى، وهي جالسة في صالة السينما بين ليز وكيلي، لو ان سام هنا بجانبها؟ ثم لماذا، بعد أن ناقشت نفسها بسبب هذه الافكار، عقدت النية على التوجه رأساً إلى منزل سام حال انتهاء الفيلم؟

وعندما اصبحت خلف عجلة القيادة، أخذت تتساءل عن سلامة صحتها العقلية. كان عليها أن تتفق مع المتجر على إرسال المناضد، ان بإمكانها أن تمر عليهم عند الصباح لتخبرهم بهذا، وتتصرف بشكل عقلاني بالنسبة إلى علاقتها هذه مع سام.

ولكن الذعر تملكها وهي تجد نفسها، بعد أن أوقفت سيارتها أمام كاراجها، تتوجه رأساً إلى منزل سام وتقرع جرس الباب. وكانت على وشك قرعه مرة أخرى، عندما سمعت صوت خطوات، ثم فتح سام الباب. وعندما رآها، اتسعت ابتسامته.

فتح الباب على مصراعيه قائلاً: «ادخلي، إننا في منتصف حكاية قبل النوم. خمني ماذا كنا نقرأ.»

إنه كتابها، وتألق وجهها وهي تتصور مبلغ حب بيكا للكتاب. «انني لم اقصد قطع...»

«حسناً، بما انك هنا، فإن اقل ما يمكنك عمله هو أن تساعديني.» وقبض على ذراعها بقوة يدخلها المنزل وهو يتابع قائلاً: «فالذنب، على كل حال، ذنبك إذ استعصى علي الحل.»

فسألته: «ذنبي؟ وما الذي استعصى عليك في قراءة حكاية قبل النوم؟»

«الكثير، لم استطع أن اجد كلمة تتفق في القافية مع كلمة زهرية.»

أخذت ميغان تقلب الكلمة في ذهنها.

وفجأة، تعالى صوت بيكا هاتفاً: «ميغان.»

ثم قالت بيكا تسأل خالها، غافلة عن المشاعر التي تشحن الجو: «هل تستطيع ميغان أن تجد كلمة بقافية زهرية؟»

فقالت ميغان وقد صدمها صوتها اللاهث: «برية.»

«نعم... برية هي نفس قافية كلمة زهرية.»

قال سام بصوت يرتجف كصوتها: «ميغان...»

فاستدارت قائلة: «علي ان اذهب.» ولكن صوت بيكا أوقفها إذ تناديها: «ألن توصليني إلى سريري؟»

نظرت ميغان إليها، ثم إلى سام.

نظر في عينيها متمعناً، يحاول أن يسبر غور مشاعرها. وكانت هي ترتجف، وكذلك هو. وكانت تتجه نحو الباب هاربة، ولكنه لن يتركها تخرج من بيته بهذا الشكل.

قال لبيكا: «انها ستضعك في سريرك في ليلة أخرى، يا حبيبتي، أما الآن، فسآتي أنا معك.» ثم نظر إلى ميغان، قائلاً: «اننا بحاجة إلى التحدث في هذا الأمر. فامنحيني عشر دقائق. اتفقنا؟» وانتظر إلى أن أومأت برأسها موافقة، فقال وهو يتنفس الصعداء: «يوجد كولا في الثلاجة إذا كنت عطشى.»

ولم تكن ميغان عطشى، وإنما كانت خائفة، وأخذت تتمشى في غرفة جلوسه وهي تجد في نفسها الضعف بقربه. ها انها تقترف غلطة هائلة أخرى، إذ تقع في غرام رجل غير مناسب مرة أخرى، ربما ليس لسام أنانية أليكس، ولكنه سبق واخبرها بأن حياته مليئة مثقلة بالأعباء وأن ليس لديه الطاقة العاطفية التي تجعله يكرس نفسه لأن ارتباطه حالياً، لقد تفهمت ذلك، كما تفهمت انه ربما لن يكون لها مكان في حياته، خصوصاً عندما يعلم أنها لن تتمكن من الإنجاب.

لم تستطع الانتظار هناك في غرفة جلوسه إلى أن يأتي من غرفة بيكا، انه سيكون رقيقاً متفهماً ما يجعل قرارها ينهار كبيت من الورق إزاء نسمة هواء.

إن الكلام بينهما مهما كثر، فلن يغير من الأمر شيئاً. ومع

انها كانت تعلم أن عدم مواجهتها له لا تعني سوى الجبن وعدم النضج، فقد اختارت ترك المكان. كانت مشاعرها بالغة الإضطراب. وهكذا خرجت من بيته، مندفعة نحو بيتها.

وعندما عاد سام إلى غرفة الجلوس، وجدها قد رحلت. تباً لكل هذا، كيف تصرف بهذا الشكل؟ لقد كانا وصلا إلى التعاهد، على أن يكونا صديقين فقط، ولكنه لم يحفظ عهده ذاك، وذلك بكل عدم اكتراث، واهمال لشعورها، لقد طرقت بابه، وقد بدت في منتهى الجاذبية في ثوبها الأحمر ذاك بأزراره الذهبية، لقد كان أمضى النهار يفكر فيها، متمنياً رؤيتها، وأن يمضي ولو ساعة معها، وعندما اقبلت إلى منزله، إذا به يتصرف كالطفل، تاركاً مشاعره تفكر بدلاً من عقله.

وتمتم يهمس لنفسه، ما أحسن ما فعلت، يا دكتور. لقد كان حلل المشكلة، واصلاً إلى افضل قرار، ثم إذا به يتخذ الأسوأ. وكأنه لم يسبق له تقليب كل الأمور بشكل وافٍ.

وأثناء التقاطه الألعاب المتناثرة على الأرض، أخذ يفكر في إمكانية اللحاق بميغان، ان بيكا سرعان ما ستنام وبإمكانه، بعد ذلك، ان يذهب إلى ميغان حيث يمضيان عدة دقائق في الحديث معاً.

ولكن... أتراها ستصدقه؟ وهل ستفتح له الباب؟ لقد سبق وطلب منها أن تثق به، ولكنه عاد فنفى كل شيء.

وغمره شعور بالإشمئزاز من نفسه، فألقى بالألعاب من يده، ثم أطفأ الأنوار. وفي سريره، أغمض عينيه، ولكن صورة ميغان لم تفارقه، ولم يلبث أن أدرك أن وقتاً طويلاً

سيمضي قبل أن يستطيع الرقاد، وأخذ يتساءل عما إذا كان حال ميغان مثل حاله في ذلك، ونفر من فكره أن ما قام به قد منعها من النوم. ما الذي سيقوله عندما يراها؟ هذا إذا رآها بعد الآن. ما الذي سيفعله إذا هي رفضت رؤيته مرة أخرى؟ وحوالي مرور ساعة، ابتدأ برايان في البكاء، وحاول سام أن يجرب ما إذا كان الطفل يقنع بوضع إبهامه في فمه ثم يعود إلى النوم، ولكنه ما لبث ان ادرك أن هذا لن يحدث هذه الليلة. فقد تحول البكاء إلى صراخ، مما ينبىء عن أن الطفل يتألم. وهكذا عاد إلى الطفل ليحمله من فراشه قبل أن يوقظ شقيقته، وهو يدرك انها ستكون ليلة طويلة، كان برايان جالساً في سريره وأنفه يسيل. وكان أثناء بكائه يربت على أذنيه ويرفس بقدميه. كان وجهه متوهجاً، ما جعل سام يتأكد من انه يعاني من حرارة والتهاب في الأذن، فرفع الطفل من سريره وحاول ان يعطيه جرعة من دواء مخفف للألم، فتقبل برايان ذلك، مع عدة رشفات من الماء، ولكنه رفض بشدة أن يدع سام يقيس حرارته. فأخذ هذا يدندن بصوت منخفض، صبراً، صبراً يا بني، انني اعلم انك لا تحب هذا، وأنا أيضاً لا احبه، ولكن علينا أن نعلم مبلغ الحرارة عندك.

وأخذ ينظر إلى ميزان الحرارة... آه، انها تقترب من الأربعين.. تباً لذلك... ما الذي ينبغي عمله الآن؟ قبل كل شيء، عليه أن يكون هادئاً، كما اعتاد أن يوصي مرضاه في مثل هذه الحالة، ولكنه يدرك الآن صعوبة ذلك عندما يتعلق الأمر بمريض يخصه، وقد ابتدأ الآن يتساءل عما إذا كان لا يعالج مرضاه بالطريقة الصحيحة. انه، في هذه

اللحظة، يدرك أنه كان يقوم بذلك أحياناً. ولو أن كل شيء في العالم، له هدف، كما يقال، فإن محنة التسنين هذه قد علمت سام التواضع.

وأثناء انتظاره أن تظهر فعالية الدواء، وضع الطفل في حوض من الماء الفاتر. ولكن الاستحمام لم يكن ما يريده برايان بل كان يريد الخلاص من الألم.

أمضى سام الساعتين التاليتين يحاول جلب شيء من الراحة إلى الطفل. ولم تنفع الآن أي من الأشياء التي كان استعملها معه حين التهبت أذنه في الشهر الماضي. كل ما كان في إمكان سام عمله هو ذرع غرفة الجلوس والمطبخ حاملاً الطفل المتألم بين يديه يهدهده. ولكن برايان لم يهتم بأي من هذه الأشياء. كان يريد أن يتخلص من الألم، ولم يستطع أن يفهم سبب استمرار سام في تعذيبه بقطرة الأذن تلك، وقياس الحرارة، وغسله، ووضع دواء كريه الطعم في فمه واسماعه ذلك الغناء.

وأخيراً، قرر سام أن ليس بإمكانه الإنتظار إلى الصباح لكي يتصل بطبيب الأطفال. ان آندي روسيتر سيتذمر لإزعاجه من نومه، ولكنه، عندما يرى برايان، سيتفهم الأمر، فقد كانت حرارته مرتفعة وكان يتألم، وهكذا اتصل سام بالطبيب مباشرة.

ما أن أخذ موعداً للقاء الطبيب في قسم أمراض الأذن، حتى أدرك سام أن هناك مشكلة أخرى. ما الذي سيفعله بالنسبة إلى بيكا؟ لم يكن يريد أن يسحبها من فراشها، فقد عانت المسكينة من كابوس سيء في الليلة الماضية، وقبل أن تعود إلى النوم، ابتدأ برايان في البكاء، ما أخذ من سام

قرابة الساعتين لكي تستقر معه الأمور بقية الليل، ولهذا استيقظت بيكا هذا الصباح متأخرة قليلاً.

ماذا عن إيمالين؟ إنه سيتصل بها حالاً، رفع سماعة الهاتف، ثم اعادها إلى مكانها. ليس بإمكانه الاتصال بها فقد كانت تقيم مع ابنتها التي كانت على وشك الولادة ولم يكن يملك رقم هاتفها.

استدار ليلقي نظرة متفحصة على الكتاب الملقى على مائدة المطبخ. كتاب دكتور سبوك للعناية بالأطفال والذي كان سام وجده في بيت أخته نانسي عندما كان يحضر حاجيات الطفلين، كان الكتاب قد اهترأ تقريباً الآن... ما يشهد على كثرة استفساراته عن كيفية تنشئة الطفلين، ولكن كثيراً من الأجوبة كانت تنصح السائل بأن يتبع ارائه.

قال يخاطب الطفل وهو يسير به نحو نافذة غرفة الجلوس: «لا اظن ان ارائي ستعثر لي على من يجلس بجانب اختك.»

لاحظ ان النور في مطبخ ميغان كان مضاءً ما يعني انها مازالت مستيقظة.

وحك ذقنه متعباً. لقد هربت دون أن تمنحه فرصة للإعتذار وشرح الأمر، هل يعني ذلك انها ليست راغبة في سماع شرحه؟ ولكنه لا يستطيع ترك الأمور لعالم النسيان. وسواء كان ذلك قراره، أم هو علم النفس الذي تعلمه، فهو يريد حلاً.

رفع برايان رأسه عن كتف سام وهو يغمغم باكياً، وكأنه بهذا يذكره بموعده مع الطبيب. ولكن سام مازال لم يجد أحداً ليجلس بجانب بيكا، إلا إذا...

هل يجروء على طلب ذلك من ميغان؟ وبرز ضوء آخر في

بيت ميغان وكأنها قد تخلت عن كل محاولة للنوم. كيف ستكون ردة فعلها على تكليفه لها بذلك؟ الأغلب انها ستقفل الهاتف في وجهه، وهذا لن يكون اكثر مما يستحق. ان عليه أن يصل إليها بشكل ما... ان يلتمس فرصة لرأب الصدع الذي حدث بينهما.

نقل نظراته من وجه ابن اخته الذي تغسله الدموع إلى الهاتف إلى الأنوار المضاءة في منزل ميغان، ثم إلى برايان. وساورته الثقة بأنها لن ترفضه إذا كان الأمر يتعلق بالطفلين. كما شعر بالذنب إذ يتخذ من مرض برايان طريقاً للوصول اليها و...

التقط السماعة وابتدأ يدير الرقم، ممسكاً انفاسه في انتظار جوابها، وعندما اجابته كان صوتها متردداً.

«أنا سام.» وأخذ يفتش في ذهنه عن مدخل للموضوع كأن يسألها عن شعورها إذ يتصل بها في منتصف الليل.

«سام... أنا...»

فشعر بأنها ستطلب إليه أن يتوقف عن الاتصال بها، ولم يكن يريد هذا... لم يكن يحتمل التفكير فيه، ولكنه لم يعرف ما عليه أن يقول. ثم ابتدأ برايان ينتحب باكياً مرة أخرى.

«ماذا... سام، هل جرى شيء لبرايان؟»

كان في صوتها اهتمام حقيقي. فقال يجيبها: «اظنه يعاني من التهاب في الأذن، وهو سيء جداً هذه المرة. إنه يشتعل بالحرارة ويتألم إلى درجة لم استطع معها الانتظار إلى الصباح حين تأتي إيمالين. إن علي أن آخذه إلى الطبيب و...» وجذب نفساً عميقاً، عالماً بأن هذه ربما فرصته الوحيدة للوصول إلى ميغان، وتابع يقول: «انني

بحاجة إلى من يبقى بجانب بيكا. لقد جربت الاتصال بإيمالين ولكنها تبيت في بيت ابنتها، ان بإمكاني أن آخذ بيكا معي، ولكنها نائمة و...»

فقاطعته: «سام. هل لديك وقت لكل هذا الشرح؟»

أجاب: «كلا.»

قالت: «امنحني خمس دقائق أرتدي فيها ثيابي.»

لقد فقدت كل ذرة من التعقل، هذا ما كانت تفكر فيه وهي ترتدي ثيابها.

ولكن هذا كان أمراً طارئاً. وهي تقوم بهذا العمل لأجل الطفلين، كانت تحدث نفسها بهذا وتردد هذه الكلمات دون توقف وهي تتجه نحو منزل سام، كان يحتضن برايان الذي كان يصرخ، وقد وضع كيس الحفاظات في السيارة.

بادرها يقول وهو يصعد إلى السيارة: «ان بيكا مستغرقة في النوم.»

فأومأت برأسها. وسار هو بالسيارة، متراجعاً إلى الخلف ليتحول بعد ذلك إلى الطريق العام، ثم توقف، لينادي بينما كانت ترتقي درجات.

«ميغان.» فتوقفت، ثم استدارت نحوه. «عندما أعود، سوف نتحدث.»

أومأت برأسها وأخذت تنظر إليه مبتعداً.

تنهدت، ومدت يدها تتناول مجلة رأتها على منضدة، وإذا بنظراتها تقع على كتاب الدكتور سبوك للعناية بالطفل. فأمسكت به، شاعرة بالألم لعدم إمكانها الإنجاب، وابتسمت وهي تتصوره يتلمس طريقه نحو الأبوة بمساعدة زميل مختص بذلك.

مسكين سام، إن هذا التحول من رجل اعزب إلى أب، لم يكن سهلاً، ولكن ما كان لبيكا وبرايان أن يكونا في أيدٍ أفضل، فهو حنون، رفيق، بالغ العناية بهما، لقد بذل من نفسه بسخاء هذا إلى أن جمال صفاته كان من الصعب مقاومتها.

ومع هذا، فإن بإمكانها أن لا تدع هذا الأمر يخرج عن سيطرتها... إن عليها أن تحمي قلبها، وعليها، بشكل ما، أن تجعل سام يفهم ذلك.

بعد حوالي الساعتين، وكانت تغالب النعاس بعد أن تعبت من هذه التأملات، سمعت صوت اغلاق باب سيارة. وبعد ذلك بثوان، سمعت شهقات برايان المرهقة، فخرجت تعاون سام بحمل أشياء الطفل ولكن ما أن وقعت نظرات برايان عليها، حتى اندفع يلقي بنفسه بين ذراعيها.

ناولها سام بطانية الطفل، ثم تنهد عندما ألقى هذا رأسه على كتفها، وقال متذمراً: «إن الطفل سينشأ وهو يكره الأطباء بما فيهم أنا.»

ابتسمت له ميغان بعطف: «إنه أمر سيء، أليس كذلك؟»

فقال وهو يقودها من ذراعها نحو درجات المدخل: «ثمة ما هو أسوأ، لقد فحصه آندي، طبيبه، وقرر أن بطنه حساسة عند اللمس.»

فشهقت ميغان قليلاً، بطن حساسة هو شيء خطر، فقالت: «ولكنك ظننت أن لديه التهاباً في الأذن.» «كان هذا هو التشخيص النهائي، لقد أجهد كل تلك العضلات ببكائه الشديد، فقرروا أن هذا هو سبب تلك الحساسية.» وأدخلها إلى المنزل مقفلاً الباب وراءهما، ثم تابع وهو يفرك عينيه:

www.elromancia.com

«كانت حرارة برايان تقترب من الأربعين، ولهذا أراد الطبيب أن يستبعد المشكلات الأخرى الممكن أن تكون هناك.»

«أوه.» وتملكتها الحيرة للتوتر والخوف اللذين استوليا عليها وهي تفكر في أن مرض برايان خطير. وأخذت تربت على ظهر الطفل عندما ابتدأ ينشج مرة أخرى.

«يقول الطبيب إن أذن برايان تؤلمه عندما يمتص إبهامه. وذلك هو السبب في صعوبة استسلامه للنوم.» وكان سام يشرح كل هذا حين ابتدأ نشيج الطفل يعلو.

فتمتمت وهي تلاطفه لكي يهدأ: «يا للطفل المسكين. ربما إذا أنا هززته قليلاً...»

فقال بجد: «يمكنك القيام بأي شيء تظنينه مفيداً في حالته.»

فجلست في الكرسي الهزاز، وعدلت من وضع برايان ضامة إياه بين ذراعيها بشدة، كان يفوح منه رائحة المستشفى مما ذكرها بطفلها الضئيل الحجم الذي كانت تتمنى دوماً لو أنها كانت احتضنته بهذا الشكل ولو مرة واحدة قبل أن يموت، ولكنه كان مريضاً جداً، فكان كل ما بإمكانها القيام به هو التقدم نحو حاضنة المواليد الذين يولودن قبل الأوان، لكي تمسك بأصابعه الصغيرة.

همس سام وهو يرى الطفل يغمض عينيه: «شكراً لك.»

فرفعت بصرها لتشتبك نظراتها بنظراته... فاضطربت أنفاسها.

تنحنح بهدوء، وقال: «هل... هل احضر لك شراباً؟» هزت رأسها وأجابت: «اذهب واحضر لنفسك شيئاً.»

«كل ما أريده هو حبة فاليوم وزنها مليون ملغرام، وزاوية اختبىء فيها.»

فقهقهت ضاحكة: «ها قد تحولت، وفي ليلة واحدة، من الشعور بالقهر والإحباط، إلى الإشفاق على نفسك.»

غاص في مقعد جلدي وهو يتأوه بضعف: «ظننت انني أشعر بالأسى على نفسي.» وابتسم بضعف. «فالطفل هو في الحقيقة ما أشعر بالأسى نحوه. إن كل ما اريده هو أن الألم في أذنه، وتنخفض حرارته، ولكن الطبيب أصر على فحص الدم، والفحص بالأشعة وأخذ عينة من البول.»

«لا عجب في أنكما مرهقان أنتما الاثنين.»

أغمض عينيه لحظة قصيرة، وشعرت هي بأنه يكافح لكي يبقى مستيقظاً، فقالت: «ربما علي أن أضعه في فراشه.»

ففتح عينيه قائلاً: «امنحيه عدة دقائق أخرى لكي يثقل نومه، إذا لم يكن لديك مانع...»

أدركت من الرقة التي بدت في عينيه، أنه يفكر في طفلها جوي، فأومأت برأسها وهي تغوص في مقعدها الهزاز.

قال لها بعد لحظة صمت: «إنك لم تذكري سبب حضورك إلى هنا هذا المساء.»

«كان ذلك بشأن المنضدة، هذا إلى منضدتين صغيرتين حيث أنك كنت وعدتني بأن تحضرها في السيارة الفان ولكن ربما من الأفضل أن...»

فمال إلى الأمام، واضعاً مرفقيه على ركبتيه: «كلا، ليس لدي أي عذر في انقضاضي المفاجىء ذاك، عليك...»

«أرجوك يا سام، انني متفهمة لذلك.»

أمعن النظر فيها، لحظة، ثم أومأ قائلاً: «نعم، اظنك كذلك.

إننا سنكون متلائمين معاً.» ونظر إليها بعينين طافحتين بالأمل، ولم يكن ثمة شيء تريده هي اكثر من أن تقول له نعم. ولكن، إذا لم تنته علاقتهما الآن، فهي ستنتهي حتماً عندما يعلم بالعملية النسائية التي كانت أجريت لها، وكان في التفكير في أنها لن تكون له ابداً، ما فيه الكفاية من الألم، وإذا هي سمحت لنفسها بمقدار من السعادة الآن، لن تكون نتيجته سوى مزيد من العذاب عند الفراق.

قالت تجيبه بصوت مرتجف: «لا يمكنني ذلك.»

أومأ قائلاً: «سأقول لك شيئاً ربما لا ترغبين في سماعه. انني لم اشعر نحو امرأة قط من قبل، بمثل العاطفة التي أشعر بها نحوك، وهذه الليلة شعرت حقاً بأنك انت أيضاً، تكنين لي نفس الشعور، هل أنا مخطىء؟»

كان من السهل عليها أن تكذب، ولكن عندما نظر إليها، لم يسعها إلا أن تقول: «انك غير مخطىء، ولكن...» واندفعت تقول حين رأت الأمل يعود إلى التألق في نظراته: «ولكن هناك شيئاً ينبغي أن تعرفه.»

فأومأ مرة أخرى، ثم انتظر ما ستقوله.

«عندما تركني أليكس...» وتنفست بعمق، ثم عادت تقول: «عندما ذهب، حسناً، لقد جعلني ذلك أدرك مقدار الضعف الذي كنت عليه... وكيف يكون الشخص ضعيفاً في مثل هذه الأمور. ولهذا فأنا لست مستعدة لتعريض نفسي إلى مثل ذلك الألم. وأنا غير واثقة من قدرتي على ذلك أبداً.»

«كان بإمكانه أن يقوم بذلك في وقت أنسب بالنسبة إليك، إن عدم مراعاته لشعورك...»

وماتت تلك الكلمات المرة بين شفتيه، وقالت تجيبه: «إن

تركه لي كان سيؤلمني دون اعتبار التوقيت لذلك. لقد كانت كل حياتي تدور حوله وحول الطفل الذي كنت حاملاً به. وكنت اعتقد أن عاقبة الأمور بيننا ستكون حسنة، مغمضة العينين عن مشكلاتنا واخطائنا. ثم، عندما تركني، كان الأمر وكأنه كان يقول لي ان لا شيء قمت به كان حسناً بحيث أدخل الرضا إلى نفسه.»

فقال سام برقة: «لقد كان العيب فيه وليس فيك، يا ميغان.»

فقالت: «لقد استغرق نسيان ذلك مني وقتاً طويلاً.»

«وأنت لا تريدين أن تجعلي لأحد مثل هذه السلطة عليك مرة أخرى.»

«بالضبط.» ولم تستطع أن تقول له البقية، فقد شعرت بأنه اكتفى بما سمع، وربما، ذات يوم قريب، سيجد لنفسه امرأة أخرى.

وشعرت بطعنة ألم لدى هذه الفكرة، ولكن هذا ما ينبغي أن يحصل.

سألها ببطء وهو يختار كلماته بعناية: «ولكن إذا لم يكن بإمكاننا التقدم بعلاقتنا إلى الأمام، فهل تريدين أن تعودي بها إلى الوراء؟» فالآن، وقد أدرك مقدار ضعفها، سيكون افتراقهما عن بعضهما اكثر صعوبة، ولكن، مهما كلفه ذلك، فهو سيقوم به، فهو لا يستطيع تصور أنه سيخسرها نهائياً.

«نعود بعلاقتنا إلى الوراء؟»

«اعني أن نعود لنكون مجرد صديقين كما كنا اتفقنا في آخر مرة...» خصوصاً وعنده الطفلين اللذين عليه ان يراعي مشاعرهما. فالحب يتطلب وقتاً ليس من حقه الآن.

رددت كلمته وكأنها تزنها في عقلها: «صديقان.» ثم أومأت وهي تبتسم له. كانت الصداقة أقل مما يريده منها بكثير، ولكن هذا كان هو الأفضل من كل النواحي.

قالت وهي تنظر إلى الطفل مستغرقاً في النوم بين ذراعيها: «أظن الصغير نائم حقاً.» ونهضت عن الكرسي الهزاز.

فكرت في أن الوقت قد حان لوضعه في سريره، كما أنها بحاجة إلى وقت تفكر فيه في السبب الذي يجعل فكرة كونهما سيصبحان مجرد صديقين، غير سارة كما يجب.

وضعت الطفل في سريره برفق. وعندما غطته، اخذت تفكر في جوي عدة دقائق، ثم اطفأت النور، واغلقت الباب.

مشت على أطراف اصابعها عائدة إلى غرفة الجلوس. كان سام متكوماً على الأريكة... مستغرقاً في النوم. فحدقت في وجهه فترة ثم خرجت إلى بيتها وهي تفكر في الطريقة التي ستملأ بها هذا الفراغ في نفسها.

الفصل الثامن

أرسل إليها سام وروداً، لم تكن وروداً حمراء طويلة الساق. ولا ذلك النوع الذي يباع في متجر الزهور. لم تكن وروداً تحملها في يدها وتشمها، فهي حالياً، ليست اكثر من قطعة ورق من اكبر وافضل مستنبتات الزهور في جنوب مدينة كنساس، كانت بطاقة تستطيع بموجبها اختيار ما تريده من فسائل الزهور من هناك. سألتها ليز التي كانت تجلس إلى الجانب الآخر من مكتب ميغان: «أي نوع من الرجال ذلك الذي يرسل إلى امرأة وروداً عليها أن تزرعها، ما أسخف هذا.»

فابتسمت ميغان وهي تنظر إلى البطاقة الهدية لاختيار ست فسائل ورد. «هذا اهتمام مشكور منه.» رغم انها لم تكن واثقة ما إذا كان قد اختار الورود بدلاً من النباتات الأخرى لأنه علم، بشكل ما، أنها مصممة على إنشاء حديقة، أم أنه اختارها لأن الورود ذات قيمة كبرى، وقالت: «إن سام يعلم أنني مصممة على إنشاء حديقة.»

«هذا اكثر سخفاً. اتعلمين ما سيكون للحفر في التراب من أثر على زينة اظافرك؟ ثم الحشرات، هل لديك فكرة عما يكمن في التراب منها؟ أظن أنه كان لدي موعد مع اثنين منها.»

فضحكت ميغان. ولكن ليز قالت وهي تتأمل اظافرها المجملة بعناية: «حسناً، لم يكن ذلك مضحكاً في ذلك الحين.» وتنهدت. «العناية بالحديقة أولاً، وبعد عدة سنوات

ستقومين بتربية عدد من الاطفال، وعند ذلك سيصبح دماغك عبارة عن هريسة، ان كل هذه الأمور المنزلية لن تنفعك.»

واندفعت ليز من الغرفة بنفس السرعة والخفة التي دخلت بها، وذلك خلف رجل لمحته يمر من أمام الباب، تاركة ميغان تتأمل في كلماتها. إن ليز لا تعلم أن ليس باستطاعة ميغان الإنجاب، وهذا ما جعل حزن ميغان بعد إجراء العملية، اكثر عمقاً، ومع صداقتها الحميمة لليز، فإنها لم تستطع اشراكها في آلامها هذه.

ولكن ليز كانت على حق إذ تقول لها ان ذلك لن ينفعها. ذلك أن شعور ميغان نحو سام لن ينفعها بشيء.

إنها لم تستطع أن تمحو من ذهنها صورته نائماً على الأريكة في تلك الليلة. لقد بدا عليه التعب والقلق ما جعل قلبها يهفو إليه.

في جلوسها إلى مكتبها، وضجيج المكتب حولها، أخذت تنظر إلى بطاقة الهدية التي أرسلها إليها، وهي تفكر بكل الطرق التي يمكنها بها تقديم الشكر إليه. أمسكت ببطاقته التي كانت مثبتة مع الهدية وقرأتها مرة أخرى. (الصداقة باقية حتى آخر العمر.)

هل بإمكانها أن تواجه آخر العمر هذا، إذا بقيت علاقتها به مجرد صداقة؟

شغلها هذا السؤال بقية النهار، وطوال الطريق إلى المنزل. وعندما دخلت كاراجها بعد السابعة بقليل، كان الجواب مايزال يتملص منها.

وأخيراً سارت نحو منزل سام بعد أن صممت على تسوية الأمور بينهما يوماً ما، أما الآن فهي تريد أن تقدم شكرها له

لفسائل الورد كما تريد أن تستعلم عن حاله برايان الصحية بعد الليلة الماضية. قرعت الجرس، فسمعت صوت خطوات بيكا الخفيفة تسرع لفتح الباب.

«إنها ميغان. مرحباً يا ميغان، ايمالين. جاءت ميغان.» فاقبلت امرأة في منتصف العمر قد خالط الشيب شعرها القاتم، وهي تحمل برايان.

بعد أن تعارفت المرأتان، سألتها ميغان: «كيف حال برايان؟»

«إنه ما زال متوعكاً قليلاً ولكنه نام بعد ظهر اليوم.» وألقى برايان بنفسه نحوها، وعندما تناولته من ايمالين أخذ يربت على وجهها. وسألت بيكا عن خالها متوقعة أنه لا بد قد عاد إلى البيت الآن في هذا الوقت المتأخر.

أجابت بيكا: «إنه في عمله.»

فقالت ايمالين تشرح الأمر: «حدث للدكتور آرمسترنغ أمر طارىء مع أحد مرضاه، إنه الآن في المستشفى ولا ندري متى يعود.»

فتابعت بيكا: «لدي شيء أريد أن أسأله عنه.»

فسألتها ميغان: «وما هو؟»

فقالت ايمالين تحذر الطفلة: «انه سيعطيك نفس الجواب الذي سبق وأعطاه لك آخر مرة.»

فقالت الطفلة بإصرار: «ربما لا.»

سألت ميغان وهي تفك اصابع برايان من شعرها: «ما هو السؤال؟»

«هو إن كان يسمح لي بأن آخذ واحداً من جراء فرانسي.»

قالت ميغان: «لا بأس، ولكن الكلب هو مسؤولية كبرى.»

فعبست بيكا: «هذا ما قاله خالي سام.»

«حسناً، الحق معه، كما أن برايان مازال صغيراً جداً. فهو لا يدرك ان الكلب قد يعضه إذا هو شد ذيله أو أذنه.»

فقالت باستياء: «وهذا ما قاله أيضاً.»

قالت ميغان بلطف: «إذن، فهذا معناه أن الجواب ربما سيكون كلا.» وحذرها صوت خفي بأنها تتدخل كثيراً في أمورهم. ويبدو أن ليس لها حيلة في ذلك.

فقالت بيكا باكية: «ولكن لا يمكن أن يقول كلا، إن ام فرانسي لديها ستة جراء لم يبق منها سوى ثلاثة، وقالت أم فرانسي أنه إذا لم يأخذها أحد، فسترسلها إلى مأوى الكلاب، وهناك سيجعلون الكلاب ينامون.»

فقالت ميغان: «ليس كل الكلاب، فهم احياناً يجدون من يأخذ الجراء، خصوصاً إذا كانت لطيفة الشكل.»

«إن هذه الجراء لطيفة الشكل جداً.»

وأخذت تصف كلاً منها، وعلى الأخص ذلك الذي تفضله وهو أنثى بنية وبيضاء وسوداء، وذات أذنين متدليتين، وذيل يهتز على الدوام، وأيضاً (أجمل ابتسامة).

فقالت ميغان وهي تتبادل ابتسامة مع ايمالين: «لم أكن أعلم ان الكلاب تستطيع أن تبتسم.»

فقالت بيكا باسمة: «ولكن هذه يمكنها ذلك. إنها أذكى من كل الكلاب جميعاً. حتى ان أم فرانسي تقول هذا.»

فقالت إيمالين، بينما تصاعد رنين الهاتف: «طبعاً، إن عليها أن تقول هذا.»

وبينما ذهبت ترد على المكالمة الهاتفية، تابعت بيكا تعدد فضائل الجرو الكثيرة بطلاقة وسعادة ما جعل ميغان

تفكر في أن بيكا لبثت تتمرن على استظهار قائمة الفضائل تلك، مدة طويلة، وستصبح أوقات سام جحيماً إذا هو رفض.

وضعت إيمالين السماعة من يدها، ثم استدارت تنظر إلى الفتاتين وهي تهتف: «آه، لا...»

فسمعت ميغان نبرة الذعر في صوت المرأة، فسألتها: «ماذا جرى؟»

«إبنتي... إنها في المخاض. رباه، لا أستطيع أن اتصل بالدكتور آرمسترونغ.»

«منذ متى ابتدأت معها آلام المخاض؟»

«صهري يقول انها أمضت طوال النهار تعاني هذه الآلام دون أن تدرك ذلك.» وعادت تنظر إلى الهاتف. «لا أدري ماذا عليّ ان افعل. اريد ان اكون معها، ولكنني لا استطيع الاتصال بدكتور آرمسترونغ وهو في المستشفى.»

قالت بيكا: «ان بإمكان ميغان ان تبقى معنا.»

قالت لها إيمالين: «ليس من الصواب ان نضايقها ربما لديها خططها الخاصة لهذا المساء.» ولكن كان في صوتها شيء من الأمل.

فقالت ميغان: «ليس لديّ خطط، اذهبي، انما كوني حذرة أثناء قيادة السيارة.» وكانت قد لاحظت قلق المرأة.

حملت المرأة حقيبتها وهي تقول: «انني لم اغسل الأطباق بعد الغداء، ولكن الطفلين أكلا، وثمة بعض الطعام في الفرن لعشاء الدكتور. اتظنين انه سيتضايق لتركي البيت؟»

قالت ميغان تأمرها مرة أخرى: «إذهبي، انني متأكدة من أن الدكتور آرمسترونغ سيتفهم الوضع.»

فابتسمت المرأة: «نعم، بالطبع انه يقول ان المرأة لا

تصبح جدة لأول مرة، الا مرة واحدة في حياتها. بيكا، ساعدي الآنسة ماكاليستر، اتسمعين؟»

«نعم، سأفعل.»

فمنحت المرأة كلاً من الطفلين قبلة سريعة، وهي تعد بيكا بأنها ستتصل بها حالما تعرف ما إذا كان المولود ذكراً أو أنثى، ثم قالت لميغان بأن تتصل بسام إذا كان هناك أية مشلكة، وطمأنتها ميغان إلى ذلك، ثم سارت معها إلى الباب.

أوقف سام سيارته، وألقى نظرة على الساعة... انها التاسعة والربع. لقد كان يوماً طويلاً شاقاً، ثم خرج من السيارة، ومن ثم توجه نحو باب منزله، لا بد إذا كان محظوظاً، أن يجد بيكا على وشك النوم، وبرايان نائماً، وحدث نفسه، حسناً، ما دمت أحلم، فلماذا لا احلم بالطفل وقد شقت اضراسه جميعاً وانتهى طور التسنين؟ وفتح الباب، ثم دخل وهو يحبس انفاسه للصمت الذي واجهه، أيمكن أن يكون الطفلان الآن نائمين فعلاً؟

لا بد أنه في منزله، فهذه الألعاب متناثرة في غرفة الجلوس. ثم سمع بيكا وهي تتقدم نحوه في الممر.

قالت له وهو يحملها ويضمها إليه بشدة: «ان إيمالين هي جدة الآن.»

«جدة؟ متى حدث هذا؟»

«منذ فترة صغيرة فقط، انها طفلة وأنا سأشركها معي في استعمال طوق شعري.»

«أظن هذه فكرة رائعة، وأنت سيدة صغيرة عاقلة جداً لأنك تشاركين الآخرين اشياءك.»

فضحكت ودفنت وجهها البريء في كتفه.

سألها وهو ينظر في الممر: «ومن احضرت ايمالين لكي تمكث معك ومع برايان؟»

«ميغان.»

فتوقف عن السير، لم يعرف كيف حدث وجاءت لتمكث مع الطفلين، ولكنه كان سعيداً مبتهجاً بما حدث، إنهم الاشخاص الثلاثة الذين يريد رؤيتهم اكثر من غيرهم بعد يوم طويل شاق.

قالت له بيكا وهو يفتح باب غرفتها: «إنها في غرفة برايان تعطيه زجاجة الحليب.»

«هذا هو السبب إذن لكونه هادئاً.»

تابع طريقه إلى غرفة برايان، إنه لن يخاطر بشيء، فرحلته إلى المستشفى هذا المساء ليرى مريضته، جعلته يدرك أهمية أن يجد شخصاً يتحدث إليه، ان يشاركه مشاعره... شخصاً يصونك من الشعور بالوحدة.

سار نحو عتبة باب غرفة برايان، ومالبث ان توقف حين شعر بالرغبة تخترقه كسكين، ذلك انه في تلك اللحظة التي سبقت رؤيتها له، كان رأس ميغان منحنياً على الطفل وقد امتلأت نظراتها بالدفء والحنان وهي تحتضن الطفل.

لم ير امرأة قط في مثل جمالها هذه اللحظة. هل هكذا يشعر الرجل عندما يرى زوجته تحتضن طفله؟

ثم رفعت نظرها وابتسمت له وقف لحظة يستوعب هذا المشهد الذي يمثل أسرة وبيتاً، عالماً بأن لا شيء آخر يمكنه ان يشعره بهذا الاكتمال...

بادلها الابتسام وهو يتقدم إلى حيث كانت جالسة على الكرسي الهزاز، وقال: «ها هي ذي ميغان تأتي لإنقاذنا، مرة أخرى.»

فضحكت بيكا، وأدار برايان رأسه بخفة نحو الصوت، وعندما رأى سام، تألقت عيناه الناعستان ورفع يده الصغيرة، فمد سام إليه اصبعه، فأمسكه برايان وهو يضحك له، فسالت قطرات اللبن من زاويتين فمه، فمسحت ميغان اللبن بطرف المنشفة التي كانت وضعتها تحت ذقنه. كان تصرفها هذا طبيعياً وكأنها اعتادت اطعامه في أغلب الأحيان، وليس لأول مرة، وفكر سام في انها أم طبيعية، وتصورها حاملاً بطفل منه، والآن، ماذا بإمكانه أن يفعل إزاء هذا؟

سمعت سام يتنهد، ورأته يحول نظراته عنها نحو برايان. كانت عينا الطفل مغمضتين الآن، فسحب سام اصبعه من قبضته بخفة.

قال بلطف لكي لا يزعج الطفل: «سأذهب لأضع بيكا في سريرها.»

همست بيكا: «اريد من ميغان ان تفعل ذلك.»

«بعد ان ترقد برايان. اتفقنا؟»

فاومأت برأسها، وبينما خرج من الغرفة وبيكا بين ذراعيه، شعرت هي بخفقات قلبها تتسارع. كانت مشاعرها تشتد في كل مرة تكون هي فيها هنا تساعده مع الطفلين. انها بحاجة إلى التحكم في مشاعرها، ولكن مشاعرها تلك تأبى ذلك.

كانت تشعر بالسعادة وهي تعتني بالطفلين، فتضعهما في حوض الحمام، تساعد بيكا في ارتداء قميص نومها الصغير، وتدخل برايان في بيجامته ذات القطعة الواحدة. ان تقرأ قصة لبيكا بينما تعطي الطفل زجاجته، ثم ترى سام

يدخل البيت، ولو أنها اطلقت لتخيلاتها العنان، لاعتقدت ان هذه أسرتها الصغيرة، وأنه عائد إلى البيت بعد يوم طويل شاق.

يالسهولة ذلك، ويالجماله... ويالعدم فائدته...! وتعيدها إلى الواقع هزة عنيفة.... هزة هي بحاجة إليها، وأخذت تعنف نفسها. وارتخت شفتا برايان وكادت تسقط زجاجة اللبن من بينهما. فأبعدتها ميغان ثم وضعته برفق في سريره، وغطته، ثم اطفأت النور.

كان سام مايزال في غرفة بيكا، جالساً بجانبها بينما كانت هي مستغرقة في سرد فضائل الجرو، وكان هو يستمع إليها ولكن ميغان أحست بأنه كان على وشك أن يعلن جواباً حاسماً بالنفي. ولا بد أن بيكا أحست بنفس الشيء. فقد قالت لميغان عندما رأتها واقفة عند العتبة. «اخبرته كم هي جميلة ونكية.»

نظر إليها سام بفضول، فقالت: «لقد قمنا برحلة قصيرة إلى منزل فرانسي لكي نرى الجراء، كانت لطيفة المنظر، ولكن الجرو، يا بيكا، يستلزم عملاً كثيراً، وخالك سام ليس لديه وقت فراغ حالياً.»

فابتسم سام شاكراً، بينما حبست بيكا انفاسها، قائلة: بإصرار: «أنا سأعتني بها... أرجوك. انك لن تقول كلا، لا يمكنك ذلك، قالت أم فرانسي ان الجراء يجب ان يكون لها بيت غداً، كل الجراء.»

فضاقت عينا سام بارتياب، فقالت ميغان: «ذلك لأنه بينما ذهب سكان البيت إلى متجر الاغذية لشراء طعام للجراء، تجمعت الجراء الثلاثة وسرقت حذاء هيلين الجلدي

الجديد. وبعد ذلك تقيأ واحد منها على سجادة غرفة الجلوس الجديدة.»

فزاد ضيق عيني سام وقال: «ها قد ابتدأت اتخيل هذه الصورة هنا.»

«هذا ليس كل شيء، لقد قام اثنان منها... انك تعرف ما اعني، وذلك على السجادة الجديدة لغرفة الجلوس تلك.»

قال سام: «اظن ادوارد وهيلين فرشا هذه السجادة حديثاً.»

أومأت ميغان قائلة: «هذه أول مرة، فأخذت الجراء الثلاثة تركض وتتسابق على السجادة الجديدة كعادة الجراء غير المدربة.»

تنهد، ثم استدار إلى بيكا: «يا حبيبتي...»

فقالت متوسلة: «أرجوك، لا تقل كلا، أرجوك، قل انك ستفكر في الأمر.»

«لقد سبق وفكرت و...»

«قل انك ستفكر اكثر... ارجوك. أرجوك...»

زمت فمها بأسى، وجعلت عينيها وكأن الدموع توشك ان تنهمر منهما، ورأت سام يستجمع نفساً عميقاً وكأنه يتهيأ لمعركة ليس منها مناص. ثم ما لبث ان تنفس ببطء، فكتمت ميغان ابتسامتها عندما قال لابنة اخته انه سيفكر في موضوع الجرو هذا.

قالت له بعد ان قبلا بيكا، وغطياها، ثم أطفأ نور الغرفة: «ألم يطاوعك قلبك على أن تقول كلا؟»

سار معها إلى غرفة الجلوس وهو يجيبها قائلاً بانزعاج ساخر: «ولكنني لم اسمعك انت تقولين كلا.»

«إن هذا الأمر لا يخصني.»

قالت له: «لقد وضعت إيمالين عشاءك في الفرن.»

«انني لست مستعداً لتناول العشاء بعد.»

وعندما تنهد، نظرت إليه ميغان، تفرست في جبينه المقطب ونظراته الشاردة. كانت كلها تعبر عن أفكاره المتألمة.

سألته: «هل تفكر في مريضتك؟»

أومأ برأسه وتنهد: «إنها امرأة شابة، أم لثلاثة. لقد ابتدأت بمعالجتها منذ اسبوع فقط، انها أول مريضة جديدة اعالجها منذ جاء الطفلان للعيش معي.»

«هل هي بخير؟»

«ستتحسن. إنما دون عرفان جميل نحوي.» وبدت في صوته مرارة جعلتها تسأله: «هل حاولت أن تقتل نفسها؟»

«لقد اغلقت باب الكاراج، ثم ادارت محرك السيارة.» وتقبضت يده بقوة. «إنني لم أدرك ان هذا قد يحدث.»

استدارت ميغان تواجهه، وعندما رأت ما ارتسم في عينيه من ألم، وضعت يدها على يده: «سام، انه ليس ذنبك.»

«إن جزءاً مني يعرف ذلك، ولكن الجزء الاكبر يتمنى لو كنت تكهنت بمبلغ عمق الاكتئاب الذي كان يتملكها... قبل ان يحملوها إلى المستشفى.»

«ولكنك قلت بنفسك انها جاءت اليك في الاسبوع الماضي فقط، كم جلسة عقدت لها؟»

«اثنتان. وكان هذا النهار موعد الثالثة. عندما لم تحضر... أخذت اتساءل... طلبت من سكرتيرتي ان تتصل هاتفياً بها. لم يكن هناك جواب. لقد وجدتها ابنتها المراهقة على وشك الموت.»

«سام. لقد آلمك هذا تماماً، أليس كذلك؟»

«في المستشفى، كانت ابنتها نصف مجنونة. والطفلان الآخران كانا جالسين والألم يكسو ملامحهما، لقد هجرهم والدهم. نهض ذات صباح وقال: «الوداع، كانت معرفتي بك على الافطار فرصة لطيفة. ثم رحل.»

«وماذا حدث لهم الآن؟»

رأى سام الألم في عينيها مزيجاً بالعطف. بدت أنها ستأخذ، دون شك، الاطفال إليها لو سنحت لها الفرصة، لقد أراد هو ذلك، أيضاً، ولكنه فقط لم يستطع ان يتحمل المزيد من المسؤولية، هذا إلى أن القوانين، والأنظمة لا تسمح بذلك.

«إن مشاريع الخدمات الاجتماعية ستأخذ الأطفال إليها إلى ان تصبح صحة أمهم سليمة تماماً وتعود إلى البيت.»

«إذن، فقد قمت انت بكل ما بإمكانك عمله.» قالت له ذلك بحزم، لقد تألمت وهي تراه يتألم، أرادت أن تقوم بشيء... أي شيء يذهب بهذا الألم ويرفع ذلك الحمل عن كاهله.

قال بصوت منهك: «أعلم ذلك. ولكن رؤيتها في ذلك السرير في المستشفى، سماع بكائها، ومعرفة مقدار الخوف الذي تملك اولادها... كل ذلك ذكرني بمبلغ أهمية أن يكون لدى المرء شخص يتحدث إليه، يمسك بيده إذا هو شعر بالوحدة.»

وتذكرت هي بمبلغ العزاء الذي شعرت به في أول مرة أمسك فيها بيدها بينما كانت هي تبكي طفلها الذي فقدت... تذكرت ذلك وهي تقول: «فقط يمسك بيدها.»

فردد كلماتها: «فقط يمسك بيدها، لاضغط، لاتوقعات... انني واثق من أن هذا يكفي تماماً.»

إنه بحاجة إلى العزاء حقاً، بحاجة إليها.

هذه الليلة، في المستشفى مع مريضته الجديدة واولادها الخائفين، جعلته يواجه مواطن ضعفه.

سألها: «اتراني احاول العمل اكثر من اللازم؟ أترين طريقتي في العمل لا تترك تأثيراً في الآخرين؟»

استدارت تنظر إليه قائلة: «عندما وصلت هذه الليلة، ركضت بيكا اليك واحتضنتك. وعندما كانت في منزلي يوم الأحد، كانت تقول على الدوام، اثناء الرسم، (خالي سام قال، وخالي سام قال). انها تحبك.»

«ولكن برايان... انه بحاجة إلى الكثير، وأنا أخشى...»

قاطعته قائلة: «لا تقل هذا... انك دوماً موجود عندما يحتاجك. ويا لتلك الابتسامة التي منحك إياها عند وصولك. كان لا يهمه ان يفقد الحليب من فمه في سبيل ان يبتسم لك.»

فضحك بلطف قائلاً: «نعم. ان افضل وقت في اليوم هو عندما اجلس قرب سريره قبل ان ينام.»

«إن نومه بين ذراعيك، يعني الكثير من الحب والثقة. لقد انتشلت الطفلين من صميم المأساة، ثم ادخلت السعادة إلى نفوسهما. ثم انك ساعدتني على النسيان، إلى درجة كبيرة.»

فارتسمت ابتسامة على فمه. «هل فعلت انا كل ذلك؟»

«نعم. ولكن انتبه، ليس كله في وقت واحد.»

فضحك: «هذا صحيح. عليّ ان احتفظ برؤيتي الصحيحة للأشياء، أليس كذلك؟»

كانت ضحكتها هي كل ما كان يريد.

قال: «اشكرك يا ميغان لحديثك الرائع هذا، ان بإمكانك ان تكوني طبيبة نفسانية جيدة.»

هزت رأسها قائلة: «اشكرك. ولكنني سألتصق بالمحاسبة، ففي الأرقام لا يوجد مفاجآت.»

«أظن ذلك، ولكن هنالك شيء ما زال يثير عجبي، وذلك منذ اعطيت بيكا ذلك الكتاب... وهو لماذا تختار امرأة مثلك لها نواحيها المبدعة، مهنة مثل المحاسبة؟»

«لأن والديها الواقعيين جداً فكرا في صعوبة ان يحصل شخص معيشته من وراء كتابة كتب للأطفال.»

«ولكن هذا يحصل. هل سبق وفكرت في ذلك؟»

«واترك مهنتي في المحاسبة؟»

«بل تتحولين إلى مهنة أخرى.»

«ان مهنتي تعجبني اما الرسوم والأغاني التي اضعها، فهي مجرد هواية. وأنا سعيدة بذلك.»

«سعيدة، هذا هو بيت القصيد.» وسكت لحظة.

فسألته: «اما زلت تفكر في مريضيتك؟»

تنفس بعمق وهو يجيب: «نعم، انها لم تتوقع قط أن يهجرها زوجها، وكانت تحاول أن تتمالك شتات نفسها لكي تستطيع ضم اولادها إليها، وعندما انعشها طبيب الطوارىء، كان كل ما استطاعت التحدث عنه هو ما كانت تشعر به من الحزن القاهر.»

فسألته ميغان بعطف: «هل كنت موجوداً هناك؟»

«آه، نعم.»

«إذن فبإمكانك أن تساعدها على اجتياز كل ذلك بشكل افضل.»

«اظن هذا ما يقلقني، وهو ان لا اتمكن من مساعدة تلك المرأة واولادها، لقد فقدوا اباهم، ويخافون من فقدان أمهم أيضاً.»

«انك ستجد وسيلة لمساعدتها على اجتياز المحنة إذا هي سمحت لك بذلك.»

ردد كلماتها مفكراً: «إذا سمحت لي. الحق معك فهذا يجب ان يكون قرارها هي، لا أدري من أين تأتيني كل هذه الشكوك والرثاء لحالي.»

وقفت وهي تقول: «من الارهاق. انك بحاجة إلى النوم. لقد كان برايان حسن المزاج هذا المساء، ولكن...»

تأوه وهو يقاطعها: «لا تذكريني بسرعة تغيير ذلك.»

وخارج الباب، وقفت تنظر اليه باسمة: «بالمناسبة اشكرك لارسالك الورود. وأنا متلهفة للذهاب لاحضارها، هل كنت تعلم انني كنت افكر في وضع اصص ورد في الشرفة.»

فضحك وقال: «نهار الأحد، عندما كنت تحملين برايان في الكرسي الهزاز، وكنت انا اسكب الطعام الصيني في الأطباق...»

فقالت تحثه: «وبعد ذلك.»

رأيت على المنضدة مجلة عن العناية بالحدائق مفتوحة على مقال موضوعه زراعة فسائل الورد. ففكرت في أن هذا ما تعتزمين القيام به.»

«هذا ذكاء فطري، تصبح على خير.» همست بذلك وهي تندفع هابطة الدرجات.

اخذ سام يتابع ببصره ذهابها، إلى ان رآها تدخل منزلها. وعندما دخل منزله واغلق الباب، أخذ يتأمل في ما كانا يتحدثان فيه.

إنه لم يشعر قط، بعد أمه وأخته، بمثل هذا التقارب من

امرأة. عاطفي وغير عاطفي أيضاً، حديث الصداقة الذي حدث بينهما كان رائعاً، لقد كان شعور الصداقة منه نحو امرأة تجذبه عاطفياً، شيئاً جديداً تماماً بالنسبة إليه.

ولكن كل آرائه في النساء كانت تغيرت فجأة منذ موت أخته وقدوم طفليها إليه. اصبح يحب البساطة والعفوية في المرأة، كما ان المرونة وكذلك ان تكون جديرة بالثقة، هما صفتان ممتازتان. وروح النكتة شيء لطيف، اما تمكنها من تدبر أمر برايان في فترة التسنين هذه، فهو الأفضل.

كان يفكر في حياته السهلة التي كانت منذ ستة أشهر، ولكنه، في الحقيقة، ما كان ليرضى بأن يستبدل حياته تلك، بهذين الطفلين. وكذلك بعلاقته مع ميغان.

فهو لم يجد التحدث إلى امرأة بمثل هذه السهولة من قبل، كلا ولا سمح لنفسه بإظهار مثل هذا الضعف امامها، لقد شعر في اعماقه، منذ البداية، بأن في امكانه أن يثق بها في كل شيء، حتى باطلاعها على اعمق مخاوفه.

ما نوع شعوره نحو ميغان؟ لا بد أنه شيء غير عادي ولكن، متى سيجرؤ على تقبل واقع الأمور؟

الفصل التاسع

سوّت ميغان بيدها التربة حول فسائل الأضاليا التي غرستها للتو، ثم جلست القرفصاء تتأملها.

لقد زرعتها حسب تعاليم بائعة الزهور، وكانت لا تتمنى سوى أن تنمو هذه بنفس جمالها في الصور التي أبرزتها المجلة.

بالنسبة إلى الورود، إن عليها أن تحضر الأصص وتملأها بالسماد، ولكنها كانت متلهفة إلى أن تري سام ما انتقته منها، لقد كانت هذه الورود الزرقاء والمرجانية والصفراء أجمل ما رأته قط من الورود من قبل، وأذكاها عبيراً. وكم كان سام ذكياً وهو يرسل إليها مثل هذه الهدية التي لا يضاهيها أي هدية أخرى إلى اظهار ما هو جميل في الحياة، وليس فهمه فقط.

كانت تفكر في تمني ما لا يمكن أن يحدث بينها وبين سام، عندما سمعت ضجة جعلتها تندفع نحو السياج الذي يفصل بين فناءهما، كانت بيكا تقف هناك ممسكة بيد عربتها اليدوية الحمراء التي حشرت فيها صندوقاً من الكرتون.

«مرحباً بيكا، ماذا يوجد في الصندوق؟»

بدت على شفتي الطفلة ابتسامة مكتومة. «إنها هدية لك، لقد فكرت في كل هذا وحدي، هل أستطيع أن أدخل وأقدمها إليك؟»

أجابتها ميغان وهي تفتح البوابة: «طبعاً، ليس لك أن تحضري إليّ هدية، يا حبيبتي.»

فقالت بيكا وهي تدفع العربة نحو درجات المدخل: «أنا أريد هذا.»

أغلقت ميغان البوابة، ثم لحقت ببيكا. ولكنها ما لبثت أن توقفت وهي تسمع صوتاً آخر... لا بد أن هذا الصوت آت من داخل الصندوق. ما عسى أن يكون؟ ومشت نحو الفتاة.

قالت لها بيكا بلهفة: «إفتحي الصندوق.»

وما أن فتحته ميغان، حتى قفز الصندوق وبدأ شيء في داخله يخمش جدرانه محاولاً الخروج، وما لبثت ميغان أن أدركت ما عسى ذلك أن يكون، فتوقفت. لقد سبق وأبدت اعتراضها على هذه (الهدية) بالذات ولكن كيف تبدي رفضها دون الإساءة إلى مشاعر الطفلة؟ وقبل أن تجد الكلمات المناسبة، كانت بيكا قد أكملت فتح الصندوق.

كان المخلوق المكسو بالفراء واقفاً على قدميه الخلفيتين، ومخالبه الأمامية على حافة الصندوق. كان عبارة عن جرو أشبه بكرة بيضاء وبنية اللون، ذي إذنين طويلتين متدليتين وعينين كبيرتين بالغتي الحيوية، وذيلٍ دائم الحركة.

صاحت بيكا بصوت مرتفع: «ألا تحبينه؟»

أخرجت الجرو وحملته متدلياً في الهواء، ثم رفعته على مدى ذراعها، ما حمل ميغان على التدخل لإنقاذه، وهي تسألها: «أحبه؟»

فقالت بيكا ضاحكة: «إنه ولد.»

«ولكن...» وكانت ميغان تحاول أن تضم الجرو بين زراعيها.

«إنه يحبك؟ والآن نحن الإثنتان لدينا جروان.»

«نحن الإثنتان؟»

«نعم، قال خالي سام انه سيقبل الجرو، إذا قبلت إيمالين بذلك. وقبلت هي، وهكذا أحضرت لك واحداً، إنه آخر الجراء.»

تنفست بعمق: «آه، يا بيكا.» وتمالكت شجاعتها لتقول ما يجب أن تقوله: «هذا لطف كبير منك...»

«كنت أعلم أنك ستحبين (دستي).»

«دستي؟»

«هذا هو الإسم الذي أطلقناه، أنا وفرانسي، عليه.»

والآن، ماذا عليها أن تفعل بهذه الإضافة الإجبارية إلى عملها المنزلي، والتي فرضتها عليها هذه الطفلة؟

وأخذ الكلب يتحرك بين ذراعيها، فوضعته على الأرض، فوضع أنفه في العشب متشمماً يحاول، بذلك، استكشاف ما حوله باهتمام، ثم اتجه نحو بيكا حيث وقف واضعاً مخالبه الأمامية على ساقيها. وعندما أخذت تمر بيدها على رأسه، أخذ ينبح شاكراً، ثم عاد يركض لاستكشاف المزيد.

جلست ميغان على درجات المدخل، ثم مدت يديها تمسك بيدي بيكا: «بيكا، إن الجرو هو مسؤولية كبيرة...»

فقاطعتها الصغيرة برزانة: «أعلم ذلك، ومن حسن الحظ أنك كبيرة، أما أنا فسيساعدني بالنسبة إلى (أمبر) خالي سام وإيمالين.»

«أمبر؟»

«هذا هو الإسم الذي أطلقته والدة فرانسي على جروي.»

تنهدت ميغان قائلة: «ولكن الجراء مثل الأطفال، يا بيكا، إنها بحاجة إلى من يوليها عنايته أكثر الوقت وأنا في عملي طوال النهار.»

فعبست بيكا، ولكن وجهها ما لبث أن أشرق: «أعلم ذلك، بامكان أمبر ودستي أن يلعبا معاً عندما تكونين في عملك، هنا في فنائك على الأرجح، وبهذه الطريقة، لن يزعج أمبر إيمالين عندما أكون أنا صباحاً في المدرسة، وعندما أعود، سأضع لهما الماء ليشربا ثم ألعب معهما.» وأدركت ميغان أن بيكا تحاول أن تجعل رفضها للجروين مستحيلاً وهي ستتحطم تماماً إذا أصبح عليها أن تعيد الجرو إلى فرانسي ومن ثم يرسل إلى المأوى.

ولكن كان على ميغان أن تعترف بأن الجرو في غاية الحلاوة. وتمددت بيكا على العشب فأخذ الجرو يركض فوقها وهو ينبح ويشد بنطلونها الجينز، ويعض رباط حذائها. ثم لاحظ أن ميغان تنظر إليه فتألقت عيناه وفتح فمه بشكل لا يمكن أن يوصف إلا بأنه ابتسامة كلبية، ثم اندفع نحوها واضعاً أنفه تحت يدها إلى أن رفعتها وأخذت تلاطفه بها، وسرعان ما كان يقفز إلى حجرها ثم يستدير حول نفسه مستقراً.

ضحكت ميغان لتصرفاته هذه، مدركة أن الضحك هو فعلاً ما هي بحاجة إليه في حياتها، ما جعلها تقول للجرو: «أوه، لِمَ لا؟ يمكنك أن تبقى هنا.»

فصفقت بيكا بيديها فرحة: «كنت أعلم أنك ستحبينه.»

قالت ميغان: «وهل فيه شيء لا يجلب الحب؟»

ومرّت بيدها على وجهه بسرعة، ثم وضعته على الأرض وهي تنظر في ساعتها: «أظن أنه ما زال ثمة وقت أذهب فيه إلى المتجر لأشتري ما يحتاجه، أتريدين المجيء معي؟»

«نعم، سأذهب لأخبر خالي سام وأعود حالاً.»

أمسكت ميغان بدستي تمنعه بذلك من أن يلحق بالفتاة خارج البوابة، وهي تقول لها: «إسألي خالك عما إذا كان يحتاج شيئاً لنحضره له معنا.»

وفي النهاية، ذهبوا جميعاً إلى المتجر، سام وميغان والطفلان والجروان، وضعوا برايان في عربة التسوق في المتجر، والجروين في الخلف بينما أخذا في شراء طعام الجراء، وطوقين لهما، ولجامين وحشيتين للنوم وطبقين للطعام وألعاب للعبث بها، وكانت الأخيرة هامة جداً حسب قول بيكا التي التقطت لعبتين تحدثان صوتاً لكل من دستي وأمبر. كما أصر سام على شراء العديد من الألعاب التي يمكن مضغها وذلك لكي تلهي الجروين عن التجوال في الأنحاء وتدمير ما بإمكانهما تدميره. وقد وافقته ميغان على هذا.

بعد أن دفعوا ثمن الأشياء واتجهوا نحو الباب، توقفت ميغان لتلتقط كتيّباً عن البيطرة، الإصابات... الطلقات النارية، الديدان، التغذية الصحيحة للجراء وإرشادات أخرى هامة، كما يتضمن فصولاً عن التدريب على الطاعة، وفي طريق العودة، أخذ الجروان يقفزان ويعبثان في مؤخرة السيارة الفان، يحتفيان ببرايان وبيكا.

بهدوء تام، سأل سام ميغان: «ما الذي جلبناه لأنفسنا؟»

فأجابت بنفس الصوت الهادىء: «الكثير من الازعاج والخسائر، وشيئاً من الضحك والحب.»

فقهقه ضاحكاً وهو يقول: «أقسم بأنه لم تكن لدي فكرة عما كانت بيكا تهدف إليه عندما طلبت مني أن أساعدها في إخراج عربتها من الكاراج.»

«لقد فكرت جادة في أن أقتلك، أو أن أعذبك، على الأقل. ولكن بيكا ما لبثت أن أخبرتني بأن الفكرة هي فكرتها.»

قال، وهو يدير مكيف الهواء: «يبدو الجو حار هنا، أليس كذلك.»

«نعم، إنه كذلك.»

عندما أخذها سام، هي والجرو، إلى منزلها، أخذت تحدث نفسها، وهي تضع الجرو حيث يمضي ليلته، بأن علاقتها مع سام ليس لها مستقبل، ليس ثمة إلا وجع القلب...

كان البدر عالياً في قبة السماء، وكانت هي تحلم بسام، عندما أيقظها شيء ما، ثم سمعت الجرو دستي. كان نباحه الآن قد تحوّل إلى أنين ليستجلب الإنتباه، فوضعت ميغان الوسادة فوق رأسها. كانت هذه ليلة الجرو الأولى وحده في هذا المكان، ولكن كان عليه أن يتعود على ذلك.

وعندما مّرت نصف ساعة، لم تستطع ميغان أن تصبر أكثر من ذلك، فنهضت وسارت إلى غرفة الغسيل وعلى ذراعها بطانية وفي يدها منبه، راجية أن يتمكن دفء البطانية، وتكات الساعة المنبهة، من جلب النعاس إلى عينيه.

تغير نباحه من الأنين إلى المرح عندما فتحت الباب،

فأخذ يرقص حول كاحليها مسروراً، فوضعت البطانية على فراشه، والمنبه بجانبه، فأخذ يتشمم الإثنين، ثم حاول أن يتبع ميغان إلى خارج الغرفة.

ثلاث مرات أمسكت به وأجلسته على البطانية، وثلاث مرات ركض خلفها نحو الباب، وأخيراً، أخرجته من المنزل. وعندما وقفت في المدخل أمام الباب، رأت الأنوار في مطبخ سام، مضاءة.

وإذ تذكرت آلام الأذن التي كان يعاني منها برايان منذ ليالٍ، قررت أن تتصل بسام هاتفياً لتسأله إن كان بحاجة إلى مساعدة منها، وابتدأت تدير الرقم.

وعندما أجابها بصوت خشن، سألته: «هل برايان بخير؟»

«نعم، إنه ينام كالطفل الصغير، وأنا لا أقصد التلاعب بالألفاظ.»

وإذ شعرت بالضيق في صوته قالت: «إذن، فلا بد أن ما يزعجك هي الجرو أمبر.»

فتأوه قائلاً: «يجب علي أن أجري فحصاً لدماغي لموافقتي على إدخال جرو إلى منزلي، أي شؤم تملكني ما جعلني أقبل بهذا الأمر؟»

«إن فتاة صغيرة ذات عينين زرقاوين كبيرتين، وشفة سفلى مزمومة إستياء، تكفي لكي يجعل من المستحيل عليك أن تقول كلا.»

فضحك، ثم عاد يتأوه قائلاً: «هل أيقظك دستي أنت أيضاً؟»

«نعم، لقد ظننت أن وضعه في الخارج قد ينفع، ولكنني أظنه لا يحب الوحدة.»

«حسناً، ليس لدي فكرة عن تهدئة هذه الجرو عندي، لكي أنام، وأيضاً بالنسبة إلى فروغ صبري، إن هذه هي الليلة الأولى التي لم يستيقظ فيها أي من الطفلين، وبدلاً من أن أنام، أراني... أراني... تباً لك من كلبة، كلا، كلا، كلا.»

فاستمعت إليه ميغان باسمة وهو يشتم الكلبة، وأخيراً قال: «لم أعد أستطيع، لقد دفعت مبلغاً كبيراً من المال على الألعاب لكي تلتهي بها، ولكن كل ما تريد عمله هو مضغ الخيزران المجدول في فراشها.»

فقالت بعد إذ سمعت أنه في حيرة من أمره، ويريد شيئاً من الراحة بعد تلك الأيام الصعبة، قالت له: «إن لديّ فكرة، لماذا لا أحضر أمبر لتكون بصحبة دستي هنا عندي؟»

شعرت بأنه يزن هذه الفكرة في رأسه، بجد، ولكن ضميره تحرك، فقال: «ولكن ليس من حقي أن أستغلك بهذا الشكل.»

فأصرت قائلة: «إن الأمر يستحق المحاولة، فهما يفتقدان بعضهما، وقد يهدآن إذا ناما معاً.»

فقال ببط: «حسناً...»

تملكها العجب وهي تراه يهتم بأمرها رغم ما يكابده من إرهاق، وقالت له: «ضع عليها اللجام، وسأحضر أنا لأخذها، دعنا نجرب ذلك قبل أن نخسر المزيد من النوم.»

فضحك بجفاء وهو يقول: «نعم، فليس بامكاني تحمل المزيد من ذلك، بشرط أن تعديني بالخروج لتناول العشاء معي ليلة السبت، ذلك لأن عليّ أن أهيىء جليسة للطفلين منذ الآن.»

فترددت، إن تناول العشاء معه هو خطوة أخرى نحو الخطر.

وقبل أن تجيب، قال: «لا أريد كلمة لا، جواباً، إنني سأعد أمبر بظرف دقيقة واحدة.»

وأقفل الهاتف، فتنهدت ميغان وهي تضع السماعة ثم تضع عليها ثوبها المنزلي. كانت أمبر تدور حول سام لاهثة، ما جعلته يشتبك بلجامها أثناء محاولته إنزالها الدرجات، وسمعته ميغان يسب ويتذمر وهو واقف ينتظرها.

وتنفست بعمق وهي تتجه رأساً نحو الدرجة السفلى من الشرفة: «أرجو أن تكوني عالمة بما أنت مقدمة عليه؟»

فأجابت: «نعم، تصبح على خير سام.»

* * *

ليلة الخميس، أخذ سام ميغان والطفلين إلى مكان تناولوا فيه المرطبات، ثم خرجوا ليحضروا أثاث المطبخ الذي كانت أوصت عليه. وفي طريق العودة حاولت أن لا تتثائب، خصوصاً أمامه.

أحب الجروان اللعب معاً أثناء الليل، في الليلة الأولى، أخذا يتقافزان، في غرفة الغسيل ساعات قبل أن يهدآ في النهاية، والليلة الماضية أحضرت ميغان أمبر حالما وضع سام الطفلين في سريرهما، آملة أن فترة من اللعب، للجروين، في الفناء الخلفي، قد تتعبهما فيخلدان إلى النوم في غرفة الغسيل.

وقد ناما إلى حوالي الثانية صباحاً حين أيقظ دستي أمبر، ثم مضى يعلمها كيف تنبح.

أثناء شتائم ميغان التي انهالت على الجروين، ألقت بنظرها نحو منزل سام، وإذ لاحظت الأنوار مطفأة، شعرت بالسعادة. لقد عوّض أخيراً ما فاته من النوم، وهذه الليلة كان يبدو اكثر انتعاشاً، فكان يبتسم دائماً، بينما بدت عيناه أقل تعباً. وسرها كثيراً أن تدرك دورها في هذا.

كانت تهتم به أكثر من اللازم، سامحة لمشاعرها بالإنخراط في ذلك بشكل بالغ العمق. ذلك أنه لم يكن لديها الإرادة الكافية لمنع نفسها من ذلك.

قالت بيكا بينما خالها يتوجه بالسيارة نحو منزل ميغان: «أرجو ألا يكون دستي وأمبر قد خرجا من خلال السياج.»

فقال سام بجفاء: «بالنسبة إلى البدانة التي أصبحا عليها، لم يعد ثمة مكان يسعها إذا أرادا حشر جسديهما.»

فابتسمت ميغان، فقد كانت تسلية الطفلين الآن، هي في إطعام الجروين على الدوام.

سألت بيكا وهي تفك حزام السيارة عن جسمها، حالما وقف سام السيارة: «أيمكننا، وبرايان، أن نلعب مع الجروين أثناء إدخالكما المناضد؟»

فقالت ميغان وهي تخرج الطفل من السيارة: «طبعاً. إنما فلندخل أولاً المنزل من الباب كي لا يهربا من بوابة السياج.»

فركضت بيكا إلى الباب الأمامي داخلة المنزل لتفتش كل زاوية منه، ثم تخرج من الباب الخلفي.

حدقت بيكا إلى الجرو وهي تقول: «من أين أحضرت هذا يا دستي؟»

فنظرت ميغان لترى الجرو يحمل في فمه غصناً مورقاً، ثم لحظت البراعم الصغيرة. وشهقت بعد إذ أدركت نوع ذلك الغصن الذي ألقاه عند قدميها.

وأخيراً، تمكنت من النطق، فقالت: «يا لك من كلب سيء.»

فخفض رأسه قليلاً، ولكن لم يبد عليه الإهتمام بغضب ميغان التي كانت تقول: «بيكا، هل لك أن تراقبي أخاك، من فضلك؟»

وضعت الطفل على الأرض، ثم اختطفت فسيلة الأضاليا. كانت مهشمة بحيث لا يرجى لها إصلاح، وبين الأنين والتأوه، أدخلت ميغان الفسيلة إلى الداخل، ملقية باجزائها التالفة في القمامة وهي تشعر بالأسى، ثم خرجت لكي تساعد سام الذي كان قد سبق وأدخل المناضد الصغيرة، ثم أخذ ينزل منضدة المطبخ الرئيسية والكراسي.

ألقى عليها نظرة طويلة متفحصة، ثم سألها: «هل جرى لك شيء؟»

«دستي، لقد أكل إحدى فسائل الأضاليا.»

«هل أكل نباتاً؟»

فأومأت تقول: «لست متأكدة مما إذا كان أقتلعها، أم حفر حولها ثم أخرجها، إذ لم أحتمل النظر إليها.»

ومدت يدها إلى المنضدة، وإذا بها تشهق بذهول وهي تقول: «وماذا لو كانت الفسيلة مسمومة؟»

ففكر في الأمر: «إن بعض النباتات يرشونها بالمواد، كما أعلم، ألم تحضري أسماء بعض الأطباء البيطريين من المتجر؟»

«نعم إن لدى واحد منهم رقماً للطوارىء أيضاً، فلندخل هذه أولاً، وبعد ذلك سأتصل به.»

وعندما وضعا المنضدة في المطبخ قالت: «فلنلق نظرة على سرير دستي الخيزراني.» وفتحت باب غرفة الغسيل. كانت قطع الخيزران والحشية متناثرة في أنحاء الغرفة.

«أنظر ماذا فعلت أمبر، يا دكتور.»

فرفع حاجبيه قائلاً: «آه، ولكن هل بامكانك أن تبرهني على أن أمبر هي التي فعلت ذلك؟»

«لقد كان جروي مستلقياً على البطانية في الزاوية، نائماً بينما جروك في وسط الغرفة وما زالت في فمها قطعة من الخيزران. إنني ما زلت أنكر كيف كنت أنت تشتمها لأنها فعلت نفس الشيء بالنسبة إلى سريرها نفسه.»

فارتسمت على وجهه ابتسامة صبيانية: «لا أدري لماذا وافقت على قبول هذين الحيوانين المزعجين.»

«لقد جاءت إلينا بيكا في لحظة ضعف، وما دمنا نتحدث عن إبنة أختك..» واستدارت تنظر خارج الباب. «سام، أنظر.»

كانت بيكا وبرايان جالسين على العشب مع الجروين. وبدا أن بيكا تجري مع دستي حديثاً في منتهى الأهمية. أما أمبر فكانت تركض حول برايان وكلما ازداد ضحكه، كلما اشتد دورانها.

قال سام وهو واقف خلفها: «هذا المشهد صالح للتصوير.»

فقالت: «إنه يجعل الأمر يستحق ما نعانيه من انزعاج.» واتجهت نحو الهاتف تطلب الطبيب البيطري.

قالت له وهي تضع سماعة الهاتف: «يقول الطبيب ان هذا لن يميت الكلب، ولكن ربما يجعله مريضاً، وهذا يعتمد على المقدار الذي دخل جوفه.»

فقال: «إن الأحمق الصغير يستحق هذا.» ولم يكن يبدو على وجهه سوى القليل من العطف على الحيوان.

فنظرت إليه قائلة: «إنه لا يعرف ما يفعل، يا سام. كان عليّ أن أتوقع مثل هذه المضايقات.»

«لا بأس، والآن علينا أن نضع سياجاً حول الحديقة ونحضر سريراً جديداً لدستي ونجد طريقة لمنع أمبر من تناول طعامها اليومي من الخيزران.»

وسرعان ما وقعت نظرات بيكا عليهما وهما ينظران إليهم، فركضت الى الشرفة تخاطب ميغان: «إن دستي آسف جداً، في الواقع، يا ميغان.»

«إذن، فقد صفحت عنه.»

فقال سام بصوت لا يسمعه سوى ميغان: «إنك متساهلة جداً معه.»

تجاهلت ملاحظته هذه وقالت: «سأدخل الجميع إلى المنزل، وبعد ذلك أساعدك في تثبيت المنضدة.»

وببطء، تركها تذهب... وهو شيء أخذ يجده أكثر صعوبة في كل مرة يضطر إليه.

لقد فكر في أشياء كثيرة وهو يركب منضدتها، ثم يجمع الطفلين ويأخذهما إلى المنزل ثم يضعهما في سريريهما، ولم يكن هو الوحيد الذي كان يفكر في ميغان، فقد استغرق حمل بيكا على الهدوء، وقتاً طويلاً إذ كانت لا تنفك عن الثرثرة عن مبلغ ما كانت عليه ميغان من حسن الخلق وهي

تصفح عن دستي، دون أن تلقي بأمبر خارجاً، لتحطيمها السرير الخيزراني.

ميغان... وأغمض عينيه وهو يتصورها حاملة برايان، ضاحكة مع بيكا، وتشاركه ابتسامة خاصة.

لقد فهم أنها كانت تحاول جهدها أن تجعل حدوداً في صداقتهما، كما أن عليه أن يقوم بنفس الشيء هو أيضاً.

كان مسروراً تماماً لموعد العشاء مع ميغان الذي حصل عليه لقاء سماحه بإبقاء أمبر مع دستي أثناء الليل. وقرر أن يتبع الرقص العشاء. وهو لن يخبر ميغان بذلك إلا في آخر لحظة كي لا يكون في وسعها الرفض.

الفصل العاشر

أخذ سام يراقب بعصبية غير عادية، ميغان وهي تقطع البفتيك في طبقها ثم تتناول منه أول لقمة، ولم يشعر بالارتياح إلا بعد ان اعلنت ان الطعام شهي حسن الإعداد.

كان يريد كل شيء في هذا المساء أن يكون خاصاً لا ينسى، كانت هذه الليلة وابتسامتها تشرق عليها، هي أهم شيء مر عليه في حياته.

سألته لتجعله يدرك أنه بقي طويلاً يحدق إليها: «كيف وجدت طعامك؟» ولكن لم يظهر عليه أنه سيحول عينيه عنها هذه الليلة.

«رائع، انه رائع.»

فقالت: «ان جو هذا المكان قد اعجبني كثيراً.»

ابتسم مسروراً وهو يقول: «ان هذا المطعم مشهور في مدينة كنساس بجودة البفتيك الذي يقدمه.»

كان مسروراً لعدم تغير المكان منذ شهور حين كان هنا آخر مرة، ولكن جلوسه امام ميغان بدد كل شدة وصعوبة الستة أشهر الماضية التي مرت، وكأنها لم تكن.

سألته: «إذن، فإن بيكا رضيت بتركك لها هذه الليلة؟»

«افضل من السابق. ولكنني اشك في انها من الممكن أن ترضى تماماً، في داخلها، يوماً ما.»

«هذا مفهوم. ربما وجود الكلبين هناك سيلهيها عن التفكير، فلا تقلق كثيراً.»

ابتسم قائلاً: «انها تنوي ان تتحدث إليه جدياً عن نبشه في حديقتك.»

فضحكت ميغان: «لقد اخبرتها ان الجراء ستبقى جراءً. ولكنها تشعر بمسؤوليتها نحو ذلك بشكل جدي تماماً.»

«ينتابني القلق احياناً بالنسبة إلى شعورها بالمسؤولية بشكل اكثر مما يلزم. وربما الظروف التي مرت بها جعلتها تكبر بسرعة.»

«آه، اظن انه لا يزال فيها الكثير من الطفولة ولكنني اظن القلق هذا هو شيء طبيعي.»

«اظن ان هنالك قاعدة تقول ان الشعور الزائد عن الحد بقلق لا لزوم له، هو من متطلبات الأبوة.»

«هذا بالإضافة إلى روح النكتة.»

فبان الدفء في ابتسامته وهو يقول: «ثم شخص يتحدث إليه المرء، شخص مميز.»

فشعرت ميغان بذلك الدفء يكتنفها، ويمتحن ارادتها... وما اضعف هذه الإرادة بالنسبة إلى هذا الرجل الذي كان الدفء المنبعث من عينيه يثير فيها شعوراً بعدم الارتياح.

سألته محاولة تغيير مجرى افكارها: «كيف حال المريضة في المستشفى؟»

أجاب: «انها تتحسن، وهي قلقة على أولادها، والتفكير في شيء خارج نطاق ذاتها هو بداية حسنة.» ونظر في عيني ميغان. «انه ليس شيئاً من عادتي القيام به، ولكنني تحدثت اليها عن صعوبة ما تعيّن علي فجأة من القيام به من دور الأب، وانني ما كنت لاستطيع مواجهة طور التسنين عند برايان لولا صديقة. لولاك انت.»

فتحت عينيها بدهشة: «أنا؟ ولكنني لم افعل شيئاً.»

«لقد كنت موجودة تستمعين اليّ وتتعاطفين معي.»

«نعم، ولكن أي شخص...»

«كلا، ليس أي شخص، ان اكثر اصدقائي، وأحياناً صديقاتي، كانوا يكتفون بالتفرج عليّ قادماً وراكضاً هنا وهناك... انني اريدك ان تعلمي كم اقدر صداقتنا وكم أنا مسرور لكونك دخلت حياتي، يا ميغان ماكليستر.»

«سام... أنا... انك صديق طيب جداً.»

تأوه في اعماقه لتأكيدها على كلمة صديق تلك، كانت تجاهد في سبيل ان تحصر علاقتهما بين تلك الحدود الآمنة التي اتفقا عليها.

«دعينا نرقص.»

فطرفت بعينيها: «نرقص؟»

قالت، راجية ان يغير تذكيره بابنة أخته، عقله: «ولكن بيكا...»

«لقد اخبرتها بأنني سأتأخر عن العودة إلى البيت كما اخبرت والدي جيل جليسة الأطفال بأنني لن اعود إلى البيت باكراً.»

كان في هذا، الرد الحاسم لأي اعتراض قد يبدر منها، كما احست ميغان، ما عدا ذلك الذي لم تجد القوة لكي تعبر عنه بالكلمات.

لقد ادركت المتاعب التي تواجهها وهي ترى تلك العينين الزرقاوين الضاحكتين والابتسامة ذات الغمازتين، ولكن هذه الليلة فقط، ستتوقف عن التفكير بالمستقبل قالت ببطء: «لا بأس.»

لم يكن لديها فكرة عن الوقت الذي مر عليهما بين الرقص والجلوس في احدى الزوايا يرشفان القهوة الإيطالية المثلجة ويتحدثان. كان كل ما تعرفه انها لم تكن تريد ان تستبدل وجودها هنا مع سام، بأي مكان آخر.

وكانت الساعة تقارب الثانية صباحاً عندما أوقف السيارة امام منزله، وسار مع ميغان يوصلها إلى باب بيتها.

وحين وقفا امام بابها، قالت: «أرجو ان لا تكون بيكا مستاءة.»

فقال سام: «كان من الممكن ان تكون اكثر استياءً لعدم احضارنا لها بوظة. ولكن بما أن الانوار كلها مطفأة ما عدا ذلك الذي في غرفة الجلوس، فلا بد انها الآن مستغرقة في النوم.»

«أليس تأكدك هذا راجعاً إلى انك اتصلت بجيل، جليسة الأطفال، حين ذهبت إلى استراحة الرجال؟»

قهقه سام ضاحكاً: «ها قد اوقعتني.» قال بلطف بعد لحظات: «غداً سنذهب إلى حديقة الحيوانات.»

وكانت قد أصبحت داخل المنزل، بعد ان ذهب سام، عندما اخذت تفكر في ما إذا كانت مشاعرها تتغلب على كل تعقل عندها عندما يكون سام موجوداً.

• • •

ذات يوم، سيحطهما الألم، هذا ما كانت ميغان تفكر فيه وهما يدخلان إلى الغابة الاستوائية، وذلك عصر اليوم التالي. سيحطمها الألم، وسيشتت كيانها عندما يقابل سام امرأة أخرى لتشاركه حياته.

انها تدرك الآن إلى اي حد بلغ اهتمامها بسام وأسرته. ان الطريقة التي يتوسل اليها برايان بها في ان تحمله، والطريقة التي كانت بيكا تتلقف بلهفة، كل كلمة تنطق هي بها، والطريقة التي يبتسم بها سام لها، كل ذلك كان يجعلها تشعر بالضعف، والدوار.

ماذا ستفعل إزاء هذا كله؟ لم يكن ثمة مجال للعودة إلى الوراء، ولا حكمة في التقدم إلى الامام، كانت تعلم كل هذا، ومع ذلك لم تستطع تغيير مشاعرها.

كانت تحمل برايان بينما هو يشير إلى الطيور النادرة، محاولاً تقليد اصواتها، عندما ادركت فجأة السبب الذي يمنعها من ان تخبر سام عن العملية الجراحية التي كانت اجريت لها فلم تعد تستطيع الإنجاب. ذلك انها بالاحتفاظ بآخر جزء من احزانها لنفسها، كانت ترجو ان تبقى على مسافة قصيرة من المشاعر بينهما لا يتجاوزانها، ولكنها لم تفلح في ذلك.

كما أدركت أيضاً ان وراء اخفائها هذا الأمر، سبباً انانياً تماماً. لقد كانت تريد ان تطيل، ولو قليلاً، من أمد العلاقة بينهما. فهو سيتركها حالما يعلم الحقيقة وهذا ما لا تستطيع احتماله.

قال سام وهو يدغدغ برايان تحت ذقنه بولع بالغ: «إن جسم هذا الرجل الصغير يثقل يوماً عن يوم، هيا، يا طفلي، الا تريد ان تجلس على كتفي؟»

فاندفع برايان من بين ذراعيها إلى ذراعي خاله. وما ان وضعه هذا على كتفيه، حتى أخذ الطفل يعبث بشعره، فأدار سام رأسه وهو يزجره ضاحكاً: «أيها الخبيث.»

فقالت بيكا ضاحكة: «انا علمته ان يفعل ذلك.» فأخذ يسرح شعره باصابعه وهو يقول ضاحكا: «يبدو انك مزهوة بنفسك لهذا.»

وكانت ميغان تنظر إليه وهو يبتسم لها... يا لغبائها إذ تحبه إلى هذا الحد.

وفجأة، رأى سام وجهها يتملكه شحوب بالغ... وشهق قائلاً: «ميغان، هل انت بخير؟»

فلم تجب، كانت تحدق فيه فقط، أو بالأصح، تحدق من خلاله. كانت نظراتها خالية من التركيز. فأمسك بذراعها يقودها إلى مقعد حجري.

ناداها مرة أخرى: «ميغان.»

عند ذلك طرفت بعينيها، ثم ازدردت ريقها بصعوبة وهي تتنفس بعمق. وعاد إلى وجنتيها لون خفيف، وقالت بصوت أقرب إلى الهمس: «انني بخير.» ولكن سام لم يقتنع. فقالت: «حقيقة.» ومنحته ابتسامة مرتجفة. «لقد اضرت بي الرطوبة هنا. هذا كل شيء.»

فقال وهو مازال يمعن فيها النظر: «ربما انت مرهقة كذلك. لقد جعلتك تسهرين اكثر الليل، ثم بعد ذلك احضرتك إلى حديقة الحيوانات...»

وكانت بيكا قد ركضت قليلاً في الممر الاسفلت، ثم عادت تعلن: «انا جائعة.»

فقال سام: «ان الطعام هو فكرة حسنة... لقد تجاوزنا وقت الغداء.» هذا رغم ان الطعام كان آخر شيء ترغب ميغان فيه.

وعندما سمع برايان أخته تقول ذلك، أخذ يرفس بقدميه، ثم يضرب سام على رأسه.

قال سام: «ان الطعام هو كلمة سحرية بالنسبة إلى هذا الطفل، انه يريد الغداء، وفي هذه اللحظة.» واحضر علبتين تحويان زبيباً دفعهما إلى الطفلين، ثم احضر علبة أخرى لميغان مصراً عليها ان تتسلى به إلى ان يجدا مكاناً يبيع الطعام.

وفي أول مكان وجداه، قال وهو يتفحص قائمة الطعام: «يبدو انه ليس امامنا سوى الهامبرغر أو لحوم محفوظة مقلية.»

فصاحت بيكا: «هامبرغر.»

فأخذ برايان يثرثر موافقاً.

ألقى سام على ميغان نظرة سريعة وسألها: «أربعة هامبرغر؟»

فأومأت موافقة، ثم اتجهت بالطفلين إلى احدى الموائد، بينما تحول هو ليطلب مايريد من البائع.

كان الوقت عصر أحد الأيام من فصل الربيع، وقد اجتذبت حديقة الحيوان هذه التي كانت جددت حديثاً، حشداً لابأس به من الزائرين، وبدت، هي وسام والطفلين، كأي أسرة أخرى وذلك مع فارق بسيط وهو أنهم لم يكونوا أسرة.

ليس ثمة كمية، مهما كبرت، من الأماني يمكن ان تجعلهم كذلك. لقد كان دورها في هذا المشهد موقتاً ويوماً ما ستأخذ مكانها امرأة أخرى. امرأة بإمكانها أن تساعد سام على اضافة وجوه أخرى باسمة إلى هذا المشهد.

قالت بيكا وهي تؤرجح ساقيها القصيرتين: «ياليتنا احضرنا معنا دستي وأمبر. كان بامكانهما ان يتخذا اصدقاء من بعض الحيوانات هنا.»

فقال لها سام وهو يضع الطعام على المائدة: «لا سبيل إلى هذا. ان تينك الجروين يقومان وحدهما بما يكفي من الإزعاج، فكيف لو وجها الدعوة إلى اصدقائهما لإضافة المزيد من المشكلات؟»

فبدت على وجه بيكا خيبة الأمل لكلماته الخشنة هذه. فقالت ميغان وهي تقطع الهامبرغر إلى قسمين وتبرده قبل ان تطعمه لبرايان، قالت: «سام، انهما ليسا سوى جروين.»

فقال وهو يناول بيكا الهامبرغر: «انهما ليسا سوى جروين، ولكنهما يقومان باكتشافات مدمرة، لا شيء في المنزل أو الفناء هو بمنحى عنهما.»

فقالت بيكا: «لقد مضغا حقيبة كتبي.»

فسأل ميغان: «انك تذكرين تلك الحفرة العميقة التي حفرها دستي في صديقتك؟ حسناً، انا واثق من انه، وأمبر، كانا يتآمران لدفن بقايا الحقيبة فيها.»

فقالت ميغان محاولة ان تخفي ضحكها، عبثاً. «انهما تصورا ان العقاب لن ينالهما اذا لم يكن ثمة جثة... والجثة هنا هي حقيبة الكتب... فهي الشاهد... اليس كذلك؟»

أجاب: «هذا صحيح.» وأخذ يقضم طعامه بعنف. ثم تابع: «اضحكي اذا شئت. ولكن فكري في انك بوجود هذين الاثنين حولك، ستكونين محظوظة لو امكنك الحصول من انتاج حديقتك على اكثر من غصن من شتلة بازيلا. والآن، على بيكا ان تذهب إلى المدرسة غداً لتخبر معلمتها ان الجرو أكل فروضها المنزلية ان الآنسة لوبيز ستسخر منها.»

عبست بيكا فيه: «انهم لا يعطوننا فروضاً منزلية في

الصف التمهيدي، الا تذكر؟ كانت صورة رسمتها لدستي وأمبر وكنت سأريها للمعلمة.»

فقال: «انني واثق من ان مكتب المباحث الجنائية سيسره الحصول على تلك الصورة ليعلقها على جدار مكتب البريد، مرقمين الأول والثاني على رأس العشرة الأوائل من المطلوبين جنائياً.»

فأفلتت ضحكة من ميغان. كانت تعرف سام جيداً إلى درجة كانت تدرك أن تذمره هذا كان في الواقع تنفيساً طيباً عن مشاعره.

قالت: «اظن حان الوقت لكي نسجل الجروين في المدرسة.»

فقال: «نعم. مدرسة عسكرية داخلية للكلاب الجانحين.»

ورشف من شرابه، ثم تنهد: «ان هذه الفكرة لن تنجح. فالجروان سيطردان قبل ان ينتهي الأسبوع.»

قالت ميغان: «ان هذا مضحك، كنت افكر في مدرسة الطاعة التي يذهب اليها الكلب وصاحبه مرة في الأسبوع و...»

فسألها مذعوراً: «الكلب وصاحبه؟»

«انك تتعلم كيف تعطي الكلب أوامر صريحة محددة. ويتعلم الكلب كيف يطيع.»

«أوامر مثل (اذهب بعيداً ولا تعد أبداً؟)»

شهقت بيكا وغصت بشرابها، فأخذت ميغان تربت على ظهرها إلى ان همد سعالها. ثم قالت تلح على سام: «اخبرها بانك تمزح، يا سام.»

«كنت اغيظك، يا حبيبتي.» قال ذلك بلطف وهو يعبث بذوائب شعرها.

«ولكنك غاضب جداً على الجروين للتمزيق الذي احدثاه في حقيبة كتبي.»

قال: «ليس بالضبط. انه ليس الا جرو صغير مثلما برايان هو صغير. وانت تعلمين كيف ننتبه دوماً إلى ان لا يمد يده إلى اشياء قد تضره.»

فأومأت قائلة: «انه يضع كل شيء في فمه.»

«وهذا ما يفعله الجروان بالضبط.»

قالت ميغان: «ربما عليك، إذن، ان تجدي مكاناً تضعين فيه حقيبة كتبك. وغداً صباحاً ساتصل هاتفياً بشأن الدخول إلى مدرسة الطاعة.»

فأشرق وجه بيكا: «هل بإمكاني الذهاب معهما، أنا أيضاً.»

فضحك سام: «يبدو لي ان هذه خطة مدبرة.»

فكر مسروراً في انها خطة حسنة تماماً حيث انها تضمن له أن يخرج مع ميغان مرة في الاسبوع لحضور تلك المدرسة. ثم سيكون هناك قسم التدريب بطبيعة الحال. وبالنسبة إلى غباء وبلادة ذهن الجروين فإن تدريبهما سيأخذ وقتاً طويلاً، وهذا يعني امسيات كثيرة وعطلات اسبوعية يمضيها مع ميغان.

وبينما تابعوا جولتهم في حديقة الحيوانات، لاحظ عليها الاستغراق والهدوء، وكان مسروراً لكونه أول من أراها بعض نواحي مدينة كنساس، وأول من رأى عينيها تتألقان وهي تستوعب كل هذا. وشيئاً فشيئاً، ابتدأت ميغان تستعيد حيويتها وحماسها، ما شعر معه سام بالرضى رغم استغرابه لهذا الشحوب الذي اعتراها في الغابة الاستوائية.

كلما كثر وجوده معها، إزداد ادراكه بأن ما يشعر به نحوها كان شيئاً جديداً عليه ومختلفاً عن كل ما عرفه من قبل، تماماً كمن يلقي بنفسه في تيار في نهر دون زورق يركبه أو سترة نجاة يرتديها، انها مغامرة عجيبة زادها إثارة، تفكيره في أن ميغان ربما تشاركه فيها.

وكانت هذه الفكرة ماتزال تتملكه وهم ينهون طوافهم في الحديقة، ثم وهو يضع الطفلين المرهقين داخل السيارة لكي يذهبوا إلى مطعم لتناول العشاء، ومن ثم إلى البيت.

وعندما أوقف السيارة، كان يفكر في انهم أمضوا يوماً رائعاً. ورفع بيكا التي كانت متعبة حقاً، حيث أخرجها من السيارة، بينما كانت ميغان تحاول اخراج برايان الذي كان نائماً. وعندما رأى الطفل متكوماً على صدرها، شعر سام بشوق لا يصدق وهو يراها تحمل طفله... طفلهما.

صعد خلفها على درجات منزله وهو في حالة ذهول، ثم فتح الباب، وفي الداخل وضع بيكا على الأريكة. استدار إليها، وهو يقول: «اتريدينني ان آخذه منك؟»

هزت رأسها قائلة: «اظن بإمكاني تدبير الأمر، ربما من الأفضل ان لا أوقظه بمحاولة الباسه بيجامته.»

فقال: «فكرة طيبة.»

قالت بيكا وهي تتثاءب: «أرى نور ماكينة الإجابة في الهاتف، يومض.»

تقدم سام يضغط على الزر، وسرعان ما انبعث صوت يقول: (سام، هنا بول فلتشر.)

إنه محاميه، أتراه يعمل في العطلة الاسبوعية، وتابع الصوت: «انا اعلم ان اليوم هو الأحد، ولكن لدي خبراً انت

بانتظاره، واظنه جاء نهار الخميس. فقد كنت في جوبلين وعند عودتي وجدت هذه الأوراق قد وضعتها السكرتيرة على مكتبي. الموضوع هو أن أوراق قضية الحضانة هي الآن على مكتبي وانك اصبحت الآن أباً بنظر القانون. اهنيك. يمكنك ان تمر علي في المكتب غداً، محضراً معك السيكار المفضل عندي.»

أخذ قلب سام يخفق بشدة، ألقى نظرة على بيكا التي كانت تراقبه مقطبة جبينها باستفهام.

«هل قال القاضي ان بامكانك ان تحضننا، انا وبرايان؟»

«نعم، لقد قال ذلك.» وأمسك بيدها الصغيرة بين يديه وحدق في عينيها الزرقاوين الكبيرتين. «ما رأيك في ذلك؟»

«سعيدة.»

فلاحظ شيئاً من التردد في صوتها، فسألها بلطف: «وماذا أيضاً؟»

تنفست بعمق، قائلة: «وماذا عن بابا الحقيقي؟ وماما؟»

«ماذا عنهما؟» كان يريدها ان تنطق بمخاوفها وبهذا لا يبقى ثمة مجال لعدم الفهم بينهما.

«هل سيغضبان لأن بابا لن يعود بابا بعد الآن؟» لم يكن هذا التعديل الجديد لوضعهم الحياتي، سهلاً لكليهما، خصوصاً بالنسبة إلى بيكا، كان ثمة الكثير مما لا تستطيع فهمه، فجلس بجانبها على الأريكة، ثم رفعها ووضعها على ركبتيه. «ان اباك وأمك سيبقيان لك طول الحياة بابا وماما، وليس هناك قاضي يمكنه تغيير ذلك. أبداً. ولكن ليس بإمكانها ان يكونا هنا ليتحدثا إلينا، أو للعناية بك وببرايان.»

«هل لأنه كان عليهما ان يموتا؟»

فأجاب بصبر: «بالضبط.» طالما تطرقا إلى هذا الموضوع من قبل، ولكنه على استعداد للتطرق إليه مرات كثيرة، لكي يجعلها تشعر بالإرتياح لهذا الوضع. وتابع قائلاً: «وهكذا طلبا مني العناية بكما.»

«وعليك أن تربينا لأنهما غير موجودين؟»

«وأيضاً لأنني أريد هذا، يمكنك أن تعتبريني بابا رقم اثنين، ان عليّ ان اكون أباك قانونياً لكي يمكنني ادخالك المدارس وآخذك إلى الطبيب وكل هذه الأمور التي يقوم بها، عادة، الآباء والأمهات نحو أولادهم.»

بقيت صامتة فترة بدت لسام دهراً، وقد أسندت رأسها ذا الشعر الأشقر الجعد إلى صدره. وأخيراً لم يعد يستطيع احتمال الصمت اكثر من هذا، فقال: «بيكا.» كانت هذه الكلمات اصعب ما عليه أن ينطق بها، كان متأكداً من ذلك، ولكن لا بد من النطق بها. «بيكا، ليس عليك ان تناديني بكلمة بابا إذا كان هذا يجعلك حزينة.»

رفعت نظراتها إليه، وعيناها مغرورقتان بالدمع، وقالت: «انني مشتاقة إلى بابا، بابا الحقيقي. ولكن إذا لم يكن بالإمكان ان يكون هو وماما هنا، فأنا أريدك أنت.» وألقت بذراعيها حول عنقه تضمه بشدة، وفمها قريب من أذنه، وقالت: «انا أحبك يا بابا.»

فكر سام وهو يبادلها العناق، بهذا الحب الأبوي غير المشروط، ولم يكن يتمنى سوى أن يعيش ليحقق كل توقعاتها منه...

قال وقد خنقته غصة: «وأنا أيضاً أحبك، يا صغيرتي.»

بعد دقيقة، رجعت بيكا برأسها إلى الخلف لتحدق إليه ابتسمت له هذه الطفلة الجميلة والتي أصبحت الآن طفلته، ثم أسندت جبهتها إلى جبهته محاولة النظر في عينيه. وضحكت بينما ذراعاها مازالتا حول عنقه وهي تقول: «بابا.» وضحكت مرة أخرى.

«ابنتي.» وضحك بلطف وقد شعر في اعماقه بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وقال: «والآن، كل ما نحن بحاجة إليه لكي نصبح أسرة حقيقة هو ماما.»

وأدار الاثنان رأسيهما حالما سمعا وقع خطوات ميغان قادمة في الممر، وقالت بيكا بلهفة لدى وقع نظرها عليها: «اعلم هذا، إن بإمكان ميغان ان تكون أمنا.»

الفصل الحادي عشر

أدرك سام أن هذا ما كان يريده بالضبط. ان تكون ميغان بجانبه، تشاركه احزانه وأفراحه، وان يحبها.

سألتهما ميغان وهي تبتسم لبيكا: «ماذا هناك؟» فقفزت الطفلة من على ركبتي سام، واندفعت نحوها قائلة: «لقد اصبح خالي سام بابا الآن، ونريدك أن تكوني أنت ماما.»

نعم، صرخ قلب سام بذلك. فمع ميغان ستكتمل حياته في النهاية. انها هي التي طالما افتقدها.

ثم رأى ما ارتسم في عينيها، عيني المرأة التي يحب، انه الذعر، لقد شعر هو نفسه بشيء من ذلك فقد كانت هذه هي الخطوة الهامة في حياته التي كان ينتظرها، لقد ادركه الحب على غير انتظار، وما زالت المفاجأة تدير رأسه.

أحاطت بيكا خصر ميغان بذراعيها: «انني احبك.» كان قلب ميغان يخفق بالألم، هذا إذن ما كان سام وبيكا يتحدثان فيه عند دخولها، ولم تسمعه، آه، ما الذي فعلت؟ كيف سمحت للأمور بأن تصل إلى هذا الحد الذي خرجت فيه عن سيطرتها؟

ولكنها كانت تعلم جواب ذلك. ان وجودها مع سام وطفليه جلب الضحكة الى فمها. لقد بعث وجودها معهم في نفسها القوة على الاستمرار. لقد جددوا بهجتها في العيش. جعلوها تشعر بالاكتمال والسعادة. والآن، ها هي ذي انانيتها التي دفعتها الى التشبث بسام وطفليه، في الوقت

الذي كانت تعلم فيه انه لا ينبغي لها ذلك، ستبقى هاجسها المؤلم دائماً، وكل ما أمكنها النطق به هو. «آه، يا بيكا.» ما الذي تستطيع ان تقوله لهذه الطفلة؟ كيف بامكانها ان تجعلها تفهم؟ أي كلمة عليها أن تستعملها لتجنبها الألم؟

ولكن سام اقترب من الطفلة قائلاً: «هيا يا حبيبتي الى النوم.»

فنظرت ميغان إليه، وشعرت بشيء يموت في داخلها.

قالت بيكا محتجة: «أنا أريد ميغان.»

فقال لها: «ليس هذه الليلة، ان علينا انا وميغان، ان نتبادل حديثاً هاماً من احاديث الكبار.»

وعندما ابتعد الاثنان في الممر، شبكت ميغان ذراعيها حول نفسها، كان الألم عنيفاً يشمل كيانها كله.

كانت هي البداية فقط، ان عليها ان تخبر سام عن العملية الجراحية التي خضعت لها، ثم عليها أن تدعه يذهب، ولشد ما سيؤلمه ذلك، ثم بيكا... وفكرت ميغان في الأيام والليالي التي عليها أن تمضيها وحيدة تفكر في الألم الذي سببته لهم جميعاً. ذلك انها تعلم الآن ان سام يحبها. لقد رأت ذلك في عينيه.

قال وهو يعود إليها: «حسناً، انها في غرفتها الآن، ولكنني لا اضمن الى متى. فهي في منتهى السعادة.»

وشعرت ميغان بأول دمعة تنحدر على وجنتيها، وهمست وقد انتابتها غصة: «سام، انني آسفة جداً آسفة.»

فتجمد سام في مكانه. كان على وشك ان يخبرها عن مقدار حبه لها... ولكنها تبكي...

ثمة شيء ما، يفسد هذه الصورة، وعليه أن يعرف ما هو.

ولأمر ما شعر بلهفة الى العودة الى وضعهما الأول بالنسبة لهذه الأمور قبل ان تهتف بيكا برغبتها في ان تصبح ميغان أمها.

استجمع شجاعته ثم سألها: «ما الأمر، يا ميغان؟» وانتظر، راجيا، خائفاً.

«لم اكن اهدف قط الى ان تصل الأمور بيننا الى هذا المدى.» كانت تريده ان يفهم. فقد أدركت وهي تنظر في عينيه، ما الذي على وشك أن تسببه له، فهي تعرف جيداً ذلك الشعور الذي ينتاب المرء إذا حطم الشخص الذي يحب ويثق به، قلبه وسحقه حتى الموت، «إذا كنت خائفة من انني استعجل الأمور...» ولكن سام كان متأكداً من أن وراء دموع ميغان شيئاً اكبر من مجرد استعجاله للأمور.

فقالت بصوت باك: «كان علي ان اخبرك من قبل.»

«اخبريني به الآن إذن.» قال ذلك برقة وهو يتمنى ان يكون ذلك شيئاً بإمكانها تدبيره.

«عندما جوي... بعد ولادته...»

تنفست بعمق ثم: «بعد ذلك... لم يتوقف النزيف عندي.» وتفجرت الدموع بشكل اكثر غزارة الآن. «قال الطبيب ان هناك مشكلة صحية قد ألمت بي. وكان هذا هو السبب في ولادة جوي قبل اوانه. ثم، بالنسبة إلى النزيف... لقد حاولوا القيام بكل شيء، ولكنه لم يتوقف. وأخيراً لم يجدوا سوى إجراء عملية، عملية... جراحية.»

الآن، اصبح كل شيء مفهوماً... هذا ما فكر سام فيه... ذلك الألم في عينيها حين رأت بيكا لأول مرة. وعندما رأت برايان، عادت إليها كل احزانها، لقد ظهر هذا في نظراتها

إليه عندما حملته بين ذراعيها لأول مرة. انما الشيء الذي كان اكثر وضوحاً، هو أنها لم تثق بسام إلى حد يكفي لإخباره بذلك. لقد كان يخبرها عن كل شيء... عن كل مشاكله، ولكنها لم تكن تفعل ذلك.

سألها بصوت دهش نفسه لبرودة نبرته: «ولماذا تخبرينني بذلك الآن؟»

وأدركت أنه سيكرهها... لقد رأت بداية ذلك في لهجته، ولم تستطع أن تلومه. وأجابت: «اخبرك بذلك بسبب ما قالته بيكا...»

«ليس هذا ما قصدت إليه. لقد قلت إنه كان عليك ان تخبريني من قبل، فلماذا لم تفعلي؟»

«في ذلك اليوم الذي اعطيت بيكا ورفيقتها دروساً في الرسم، قالت انك وعدتها بأخوة واخوات. فلم استطع ان اخبرك.»

«لماذا؟ لقد كنت اخبرتني بكل شيء آخر... أم ان هذا ليس صحيحاً؟»

فسحبت نفساً عميقاً وذراعاها مازالتا ملتفتين حول وسطها، وحدقت في السجادة وهي تقول: «ليس ثمة شيء آخر.» ولم تحتمل رؤية الألم الذي بدا في عيني سام، فقالت: انني آسفة جداً.»

فانفجر يقول: «آسفة؟» لقد أمسكت عنه أهم جزء مما كانت عانته. لماذا لم تخبره بأن ليس في امكانها الإنجاب؟

وعاد يقول: «آسفة... انني واثق من ان هذا ما كان قاله زوجك حين خرج من البيت، وما كان قاله الأطباء عندما

اضطروا لإجراء العملية، وعندما لم يستطيعوا انقاذ حياة طفلك. فماذا نفعتك كلمة الأسف هذه منهم؟»

لم يرفع صوته وهو يتكلم، وربما لو كان ثار عليها، لوجدت حجة في الرد عليه بثورة مشابهة. ولكن كل ما امكنها سماعه هو الألم، وهذا ما ستبقى ذكراه في نفسها على الدوام. كان الحق معه. فالأسف لم يخفف اياً من آلامها كما انها لن تبدد آلامه هو أيضاً.

رفعت ذقنها، مستعدة لمواجهة نتائج تصرفها الأناني: «الحق معك. فليس لدي أي مبرر لعدم اخبارك.»

فدس يديه في جيبيه، ولكن ليس قبل أن ترى ميغان اشتداد قبضتيه: «انك لم تثقي بي، كنت أظن انني اعني لك شيئاً ذا اهمية، وأن كلا منا يعني شيئاً للآخر. ولكن اظنني كنت مخطئاً.»

سمعت الجليد في لهجته. ورأته في عينيه. لم يبق شيء هناك. لو كانت الضراعة تغير من الأمر، لابتلعت كبرياءها وتضرعت إليه ان يصفح عنها، ولكن لا شيء يمكن أن يغير من الواقع الذي هو أن ليس بإمكانها ان تنجب له الأولاد الذين يريدهم.

مشت نحو الباب، وللمرة الأخيرة، استدارت نحو الخلف بنظرة أمل، كانت تلك العينان اللتان طالما حدقتا اليها بنظرات تشع دفئاً كانتا الآن تنضحان بالغضب الملتهب. واغلقت الباب خلفها.

أراد سام أن يحطم شيئاً، كيف أمكن لميغان ان تتصرف معه بهذا الشكل؟ ان تحمله على الظن بأنها تهتم به وبالطفلين؟

ولكنه ما لبث، بعد شيء من التأمل، ان اعترف بأنها كانت تهتم بهم فعلاً. وإلا لكانت ضحكت في وجهه. ولكنها بكت بدلاً من ذلك، وكانت دموعها حقيقية، وخلال ثورته، تألم لأجلها اكثر مما تألم لأجل نفسه، ولأجل بيكا أيضاً.

بعد زمن يسير، سينسى برايان كل شيء عن ميغان ودورها القصير في حياته. اما بيكا... انها ستتذكر وستتألم. وهي التي مازالت تحاول اجتياز محنة موت والديها، فكيف بإمكانه ان يشرح لها ان ميغان لا يمكنها ان تسد ذلك النقص في حياتهم رغم رغبة بيكا الشديدة في ذلك.

لقد نسف هو كل شيء حقاً، كيف أمكنه، رغم كل دراسته وخبرته في حقل العلاقات، كيف امكنه ان يغفل قواعد ذلك ويدع ميغان تتدخل في حياتهم إلى هذا الحد...؟ هذا إلى أنه كان يتطلع إلى زيادة صلتها بهم، متشوقاً إلى قضاء المزيد من الوقت معها أثناء تدريب الكلبين في مدرسة الطاعة؟

أمبر... ان الجرو ما زال في منزل ميغان. وبيكا ستذهب، قبل الافطار، لاحضار الجرو، كعادتها كل صباح، ليس بإمكانه ان يسبب لها الحزن برؤية ميغان.

لم تكن ميغان وحدها المسؤولة عن تطور الأمور هذا. لقد أدرك هذا وهو يجتاز الفناء إلى بيتها. لقد حان الوقت للاعتراف بدوره في كل ما جرى. لقد كان هو البادىء على الدوام، وهو الذي كان يلاحقها، ولكنه كان يظن انهما ينشئان علاقة دائمة. فيا للمهزلة، لقد كان أهم ما تعلمه خلال سنوات خبرته كطبيب نفساني، هو أن الثقة هي حجر الزواية في أي شيء دائم. وميغان لم تثق

به، وتنفس بعمق وهو يقف على مدخل بابها، وذلك لكي يتمكن من تمالك نفسه ويستطيع التفاهم معها لآخر مرة. كان لا بد من هذا.

وعندما سمعت ميغان رنين الجرس، أسرعت بمسح دموعها، لا بد ان سام قد جاء لأجل الجرو أمبر. وكانت قد سبق وأمسكت بلجام الكلب، ناوية اعادته الى سام إذا لم يفكر هذا به. كان الاثنان يعلمان أن من الأفضل لبيكا أن لا ترى ميغان كثيراً.

حملت الجرو وهي تغالب دموعها، ثم فتحت الباب.

ابتدأ سام بقوله: «جئت لأجل...» وإذ رأى الكلب بين ذراعيها تابع يقول: «ها انك فكرت بـ...»

فازدردت ميغان ريقها، وقد خنقتها غصة، لقد تلاشت برودة الثلج في عينيه، ولكن لم يكن ثمة أثر لدفء، كان هناك الألم والتصميم... فقط.

قال وهو يتناول منها الكلب: «لم أشأ لبيكا أن تأتي إلى هنا في الصباح، في هذه الظروف... حسناً، ما كان ينبغي أن أقول أولاً، هو انك لست وحدك الملامة على كل هذا...»

كان على ميغان أن تتوقع هذا منه. كان عليها أن تعلم أنه، حتى في هذا الظرف، لا بد أن يكون عادلاً. فقالت: «شكراً، يا سام.»

فأومأ يقول: «ليس هذا الأمر بيني وبينك، فقط، ان عليّ أن اضع بيكا في الحسبان. ولهذا، اظن من الأفضل، في مثل هذه الظروف، أن لا يرى الواحد منا الآخر بعد الآن.»

«نعم.» وكان هذا كل ما استطاعت قوله.

كانت تظن أن أليكس، زوجها السابق، قد حطم قلبها،

ولكن ألمها ذاك لا يقاس بتمزق فؤادها المفجع وهي ترى سام يدير لها ظهره مبتعداً.

* * *

أحاطت الوحدة والهدوء بميغان عندما عادت يوم الاثنين من عملها. وخرجت إلى الفناء تفتش عن الجرو دستي، ولكن حتى حركات الجرو المضحكة لم تستطع ان تبدد الوحشة التي كانت تكتنف افكار ميغان. وكانت واثقة ان شيئاً لن يستطيع ذلك.

كيف سمحت لنفسها بالوقوع في الغرام بمثل هذا العمق الأحمق؟ بالرغم من كل جهودها، انتهت إلى حيث كانت تحاول جهدها أن لا تصل إليه، ألا وهو الألم والوحشة، والأسوأ من كل هذا هو علمها بأنها ليست الوحيدة التي كانت تتألم.

دستي، ما بك تحفر على الدوام؟» ارتفع صوتها تزجره وهي ترى آخر محاولاته في الحفر في حديقتها.

جلست على آخر درجة امام بابها، جاعلة دستي يصعد ليجلس على ركبتيها، كان في العادة، يثير ضحكها بحركاته، ولكنها، هذه الليلة، كان كل ما تفكر فيه هو انها ستمضي حياتها من دون سام.

وضعت دستي على الأرض، ثم شرعت تسقي ورودها. وهي التي كانت احضرتها تبعاً لبطاقة الهدية من سام، والتي كانت غرستها يوم السبت الماضي، قبل ان يأخذها لتناول العشاء معه في الخارج.

قطع عليها نباح دستي، افكارها، ففتحت عينيها لترى

بيكا واقفة في الجانب الآخر من السياج، تنظر إليها، ولم تستطع ميغان سوى مبادلتها النظرات. كيف تستطيع استعادة كل ما جنته يداها؟ كل الألم الذي سببته للطفلة، بيكا، البراءة الحقيقية، قد وقعت في الوهدة التي حفرها ميغان وسام.

كان الألم والإتهام في عيني بيكا، واضحاً. «يقول أبي ان الشخص عندما يغضب من انسان، عليه أن يتحدث معه عن ذلك.»

كانت ميغان تظن أن لا شيء يمكن أن يؤلمها اكثر مما تتألم الآن. ولكنها كانت مخطئة. «لابأس.» أجابت بهذه الكلمة وهي تتمنى لو تهرب إلى داخل البيت لتختبيء من نظرة الإتهام التي كانت توجهها إليها تلك الطفلة البالغة خمس سنوات من العمر.

جلست على إحدى كراسي المدخل، منتظرة من بيكا القيام بالمبادرة، وتسلقت الطفلة كرسياً امام ميغان، ثم اخذت تتفرس في حذائها لحظة طويلة. كانت بيكا تحاول جهدها ألا تبكي، كما لاحظت ميغان.

وأخيراً، سألتها بيكا: «لماذا لا تريدين ان تكوني أمنا؟» لا شيء في حياة ميغان كان قد اعدها للحظة مثل هذه، عندما تواجهها فتاة صغيرة طالبة ان تعلم سبب رفضها، هي ميغان، لها.

«قال إنه كان لديك طفل مرة، قبل انتقالك إلى هنا، ثم مات ولا يمكنك الآن أن تنجبي اطفالاً آخرين.»

«هذا صحيح.» تنهدت ميغان وهي تتمنى لو بإمكانها ان تجد كلمات تخفف من حزن الصغيرة، ولكن لا شيء مما

بإمكانها قوله، ذو أهمية. وكما كان سام قد قال، فهذا أحد الاوضاع التي ليس هناك كلمات تخفف منها.

«وماذا قال غير ذلك؟»

«قال ان والد طفلك قد تركك ولهذا أنت لا تريدين ان تتزوجي مرة أخرى. أبداً.» وعبست بيكا في وجهها. «ولكنك كنت تضحكين وتبتسمين في كل المحلات التي كنا نذهب إليها معاً، ألم تكوني سعيدة؟» نعم، لقد كانت اسعد مما كانت قط، ومما ستكون بعد الآن، كانت ميغان تعلم هذا وهي تجيب قائلة: «نعم، لقد كنت سعيدة بوجودي معكم.»

«كنت اظنك تحبيننا.»

ما الذي تقوله تلك الأغنية القديمة (انك دوماً تسبب الألم لأولئك الذين تحبهم)؟ ورغم ما بذلته هي من جهد في أن لا تفعل ذلك، فقد احبت وسببت الألم لأهم الناس عندها.

قالت وهي تختار كلماتها بعناية: «انني احبكم جميعاً كأصدقاء حميمين جداً. لقد كنت حزينة جداً عندما انتقلت إلى هذا البيت، واعرتني أنت الورق واقلام الرسم لمساعدتي على نسيان احزاني. انني احبك كثيراً لأنك صديقة مميزة في حياتي.»

وكان كتفا بيكا يرتفعان وينخفضان مع تنهداتها الثقيلة. «اريد ان نبقى جميعاً اصدقاء وبهذا يمكن لدستي وأمبر ان يلعبا معاً، ثم بإمكانك ان تعلميني كيف أرسم وانظم الأغاني. ان بابا ليس ماهراً جداً في هذا.»

وجاء دور ميغان للتنهد، ان رؤيتها لبيكا ولو مرة واحدة كل فترة، سيجدد آلامها، ويجعلها تفكر في كل ما كان لها، ثم فقدته، وكل ما ليس بإمكانه ان يكون، ولكن احتياجات

بيكا لها الأولوية، هل من الأفضل بالنسبة للطفلة أن يحدث الانفصال مرة واحدة، أم أنه سيكون أقل ايلاماً لو أنها، ميغان، انسلت بنفسها تدريجياً من حياة الفتاة؟

«ان لدي فكرة يمكنك ان تناقشيها مع سام، اعني أباك وتسمعي ما سيقوله، ربما بإمكاني ان اعطيك دروساً في الرسم ونظم الأغاني كل فترة، ثم بإمكان دستي أن يلعب مع أمبر.»

«لا أظنه سيحب هذه الفكرة. انه يقول اننا سننتقل الى بيت جديد وبهذا سيكون لي اصدقاء جدد.» واحست بغرز سكين في فؤادها إذ تدرك انها لن تراه مرة أخرى أبداً، حتى ولا عن بعد، انها تفهم مبرراته لذلك، ولكن التفكير في أنه لم يعد يريد رؤيتها أبداً، وأنه لا يستطيع تحمل وجودها في جيرته، فهذا شيء آخر.

«بيكا.» سمعت الاثنتان نداء سام هذا آتياً من مدخل الباب الأمامي من بيته.

وقفت الطفلة. وللحظة، ظنت ميغان ان بيكا ستعانقها. كانت بحاجة لذلك. بحاجة لأية إشارة، حتى ولو لم تكن اكثر من ابتسامة ضئيلة، تعلمها بأن بيكا قد فهمت وضعها وصفحت عنها، وان الفتاة ستكون على مايرام. ولكن سام نادى مرة أخرى، فأسرعت بيكا تهبط درجات المدخل ثم تخرج من البوابة، تاركة ميغان في حزنها.

• • •

كان برايان نائماً تلك الليلة، وكان سام قد ساعد بيكا في تدريبها على الكتابة، ثم أرسلها لترتدي بيجامتها. وعندما سرحت شعرها وغسلت اسنانها، عادت إليه، جاهزة لكي

يضعها في سريرها. وكانت تحمل في يدها كتاب ميغان.

كان سام يكره النظر إليه ومع ذلك ما زال لهذا الكتاب القوة لاجتذابه في نفس الوقت. إنه يحفظ اغاني الكتاب غيباً، ولكن هذه الليلة التصقت الأغاني في ذاكرته، كانت كل واحدة تحمل ذكرى منها، ذكرى انسجامها السهل الطبيعي مع أسرته. كان مايزال يذكر بكل وضوح كيف كان شعوره عندما كان يعود إلى البيت ليرى برايان في حضن ميغان بينما هي تطعمه من زجاجة اللبن، ويرى بيكا تحتضنها من خصرها لتعلن كم تحب ميغان.

لم يكن فكر قط في أنه من الممكن أن يشعر بكل ذلك الفراغ والوحشة، وكأن لا شيء يمكن أن يملأ حياته مرة أخرى، وتمنى لو يخبره شخص ما كيف ستمر به الأيام من دون ميغان.

وماذا عن الليالي؟ لقد بقي الليلة الماضية مستيقظاً وهو يفكر في أن عدم ثقتها به ستدمر كل شيء قد يكونان قد وصلا إليه، التفكير بذلك لم يستطع ان يطفيء شوقه إليها، وعندما تمكن أخيراً من النوم، ملأت صورها احلامه.

وفي عمله، أبدت سكرتيرته ملاحظات عن كثرة ما أخذ يصدر عنه من هفوات، وكذلك زملاؤه أبدوا ملاحظاتهم بشأن عدم امكانه التركيز. وكان يلوم امامهم عدم تمكنه من النوم جيداً بسبب فترة التسنين التي يمر بها برايان، وذلك فقط لكي يتخلص من تساؤلاتهم.

لم يكن بإمكانه اخبارهم بالسبب الحقيقي، لم يكن يستطيع ان ينطق بكلمة بصوت عالٍ... فيقول إنه في ظرف اسابيع قليلة قد وجد ثم فقد حب حياته. إنهم، عندذاك،

سيتعاطفون معه. ولكنهم أيضاً، سيحاولون اقناعه بأنه سيتعرف إلى امرأة أخرى يوماً ما، فقد كان هو نفسه يستعمل هذا المنطق مع الكثير من مرضاه، ومرة أخرى، يفكر في الجواب دون تردد، وهو أن ليس ثمة امرأة سوى ميغان، بإمكانها ان تسد ذلك الفراغ في حياته.

* * *

لمحت ميغان بطرف عينها، صديقاتها الثلاث والعمال المساعدين وهم يراقبونها من عند باب مكتبها، وحاولت ان تتجاهلهم وهي تابع عملها امام شاشة الكمبيوتر.

كانت الطريقة التي تتخذها في تكديس المعلومات ستشغلها طوال نهار الغد، وربما نصف اليوم الذي يليه. وقبل كل شيء، كان هناك عشرات الأخطاء في النقل التي وقعت فيها اثناء نسخها الأرقام من تسجيلات ستديو بون داس ماجعل عليها ان تقوم برحلة أخرى إلى هناك لكي تستطيع ان ترى أي حساب هو الخطأ وأيه الصحيح.

لقد مضى اسبوعان وخمسة أيام منذ رأت سام لآخر مرة في ذلك الأحد الهائل. وكان من المفروض ان يخفف الزمن من احزانها، ولكن احزانها هذه ما كانت إلا في ازدياد.

إحدى الثلاث الواقفات عند العتبة واللاتي هن كيلي وليز وجولي، تنحنحن بصوت عالٍ، ولكن ميغان استمرت في الضرب على مفتاح الكمبيوتر.

فقالت كيلي: «يظن من يراها ان المدير يريد ان يراجع الحسابات التي تقوم بها باجمعها وذلك للطريقة التي أخذت تقوم بها مؤخراً.»

والواقع ان إداء ميغان لعملها قد أصبح يستغرق من الوقت ثلاثة اضعافه سابقاً، فالحزن كان يعطلها عن التفكير. كما أن ذكرياتها قد اصبحت اكثر انتعاشاً ونشاطاً وذلك بدلاً من التلبد والخمود.

قالت جولي ساخرة: «كلا، اظنها قامت بخطأ شنيع تحاول جاهدة الآن، ان تخفي آثاره.»

فقالت ليز وهي تتقدم لتقف خلف ميغان: «أما ما أظنه أنا فهو أن هذا العمل يمكنه أن ينتظر.»

«كيلي، ساعديني على الإمساك بها، جولي، اقفلي الكمبيوتر وخلصينا منه.»

فاحتجت ميغان بضعف: «لِمَ كل هذا؟» كانت تبدو على وشك ذرف الدموع، وكان البكاء هو كل ما كانت تفعله كما يبدو، هذا بالإضافة إلى اقتراف الأخطاء في العمل. فقد تقدمت في هذا كثيراً.

اجابتها ليز: «إننا نفعل ذلك لمصلحتك.»

* * *

هتفت بيكا وهي تدخل المطبخ: «هنالك رائحة غريبة.»

آه، انه العشاء. أدرك سام هذا قبل أن يتصاعد الدخان بجزء من الثانية. فأطفأ النار، ثم رفع المقلاة عن الموقد، ووضعها في حوض الغسيل حيث فتح فوقها صنبور المياه بينما مد يده يخرج البطارية من المنبه الذي كان يزعق دون انقطاع.

ودام الصمت الذي تلا ذلك ثانية واحدة قبل ان يبدأ برايان في البكاء، لم تتمكن ايمالين من جعل الطفل الباكي يأخذ غفوة إلا قبل عودة سام من عمله مباشرة. والآن، قد ايقظ هذا

المنبه اللعين الطفل من نومه. أجلسه على أرض المطبخ بينما اتصل هاتفياً يطلب بيتزا ليأكلوا.

وبعد ذلك ابتدأ يغسل الخضر لإعداد عشاء بدلاً من ذلك الذي كانت تركته له إيمالين في الفرن لكي يعيد تسخينه فلم يستطع القيام، كما يجب، حتى بهذا الأمر البسيط. ولكن مثل هذه الأمور قد أصبحت مؤخراً معتادة لديه. فمنذ أخرج ميغان من حياته، لم يستقم معه شيء.

استمر برايان في البكاء في الوقت الذي أسقطت بيكا فيه إبريق البلاستيك الذي يحتوي على الصلصة، وذلك أمام الثلاجة، ثم وقفت مرتجفة وسط بركة بنية اللون. وابتدأ الكلب ينبح. بينما تصاعد رنين جرس الباب. وتسمّر سام مكانه وهو يحدّق إلى كل هذه الفوضى في المطبخ، وحده. ثم عاد رنين جرس الباب يتصاعد. واحس بشعور قوي يدفعه إلى تجاهل رنينه، فقد كان الوقت لم يحن بعد لوصول البيتزا، كما أنه لم يكن ينتظر أحداً.

آه، جوانا لقد نسيها تماماً، واندفع إلى الباب ليجدها بصحبة رجل وامرأة في منتصف الثلاثينات من العمر. وتأوه سام في داخله، لقد جاءت جواني لتعرض منزله للشارين. ولم يعرف كيف نسي هذا. ولكن النسيان أصبح عادة عنده هذه الأيام.

أمسك بالجرو الذي كان يتقافز حوله، ثم دعا جوانا ومن معها للدخول. واستدار ليرى بيكا تدخل غرفة الجلوس. كان جوربها الأبيض قد أصبح الآن ملوثاً بالصلصة ما جعلها تترك بصمات قدميها حيثما كانت تخطو على السجادة.

تبادل الزوج زوجته النظرات. ثم الزوج وجوانا.

قال سام يشرح الأمر: «لقد حدث كل هذا بشكل غير متوقع.» وكان كل شيء، في الواقع، قد أصبح يحدث بشكل غير متوقع.

وتابع يخاطب جوانا: «سيري أنت وأريهم البيت ولا تهتمي بنا.»

ناول الكلب لبيكا طالباً منها أن تأخذه إلى الخارج، ثم تخلع جوربها وتضعه في غرفة الغسيل، ثم سار إلى المطبخ ليكتشف السبب الذي جعل برايان يكف عن البكاء. كان هذا جالساً في وسط بركة الصلصة وهو يخبط يديه في السائل ناثراً الرشاش حوله، لاهياً ضاحكاً.

«وهذا هو ال...» وتوقفت جوانا التي كانت تقف عند عتبة الباب، عن إكمال جملتها.

استدار سام ليراها، والزوجين اللذين معها، يحدقون إلى برايان. وكانت الزوجة تتشمم الهواء الذي كان ما يزال عابقاً بالدخان.

قال سام بابتسامة متوترة: «لقد احترق معي العشاء، ولم أجد وقتاً بعد لتنظيف الرماد.»

فقالت جوانا بلباقة: «سنعود فيما بعد.»

تنهد سام وهو يقبض على مجموعة من الورق ثم يأخذ في امتصاص بركة الصلصة الجالس فيها برايان. ولم يعجب هذا العمل برايان، وأعلن عن استيائه هذا بعويل عالٍ.

فقالت بيكا وهي تدخل المطبخ حافية، جارة أمبر خلفها: «آسفة لإسقاطي الإبريق.»

أخذ الكلب يتشمم الأرض حول برايان، ثم ابتدأ يلعق بقايا

الصلصة. كان هذا هو الشيء الوحيد النافع الذي قام به الكلب حتى الآن، كما أخذ سام يفكر وهو يلقي بكومة الورق المبلولة في القمامة.

قالت له بيكا: «أنا عطشانة.»

إنها طبعاً عطشانة، فهو لم يكمل نصف مهماته بعد. وسكب لها كوباً من عصير التفاح، ثم حمل برايان. وما ان أخذه إلى منضدة تغيير الملابس حتى شعر بأن الطفل حار جداً. وبحسبة بسيطة، أدرك أن سناً آخر في طريقه إلى البروز، فالبكاء والتوتر طوال النهار، ثم هذه الحرارة الآن...

تنهد سام مرة أخرى. فهو لم يكن مؤهلاً ليقوم بمهمة الأبوة وحده. ولكن المرأة التي كان يريدها بجانبه، لا تثق به.

الفصل الثاني عشر

«ثلاث لقمات» أعلنت جولي ذلك عندما دفعت ميغان طبقها من أمامها. «إنكما مدينتان لي بدولارين من كل منكما. هيا إدفعا.»

وتأوهت ميغان عندما أخرجت الفتاتان دولارين لدفع قيمة الشرط الذي لا بد أنهن اتفقن عليه قبل أن يجررنها معهن لتناول العشاء في الخارج.

قالت كيلي: «هذه الآهة الطويلة المتألمة هي نوع من الإكتئاب.»

فقالت الفتيات الثلاث في وقت واحد: «إنها قضية عاطفية.»

فسألت ليز وهي تضع يدها على يد ميغان: «ألن تحدثينا عنها.»

فهزت هذه رأسها. كان الأمر ما يزال أكثر إيلاماً من أن تتحدث عنه، حتى مع ليز.

فقالت جولي: «حسناً، إن أفضل ما يمكنك عمله، هو أن تخرجي إلى الناس وتتعرفي إلى صديق آخر.»

فأضافت كيلي: «صديق رائع ينسيك صديق الآخر.»

صديق آخر؟ لا شيء يجعل ميغان تغامر مرة أخرى معرضة نفسها لهذا النوع من الألم، مهما كان الرجل رائعاً. هذا إلى أنه ليس ثمة رجل يمكن أن يقارن بسام. ليس هناك من هو بمثل تفكيره، ولا حنانه، ولا كرمه وحبه.

كانت ميغان تريد أن تذهب بعد الغداء إلى بيتها لتجلس وحدها مع الذكريات والأسى. ولكنها لم تكن تملك من أمرها شيئاً وزميلاتها يفقنها عدداً وقد قررن أن تذهب معهن إلى السينما. كما أن سيارتها كانت في مرآب المكتب.

وفي ظلمة صالة السينما، تذكرت تلك الليلة التي ذهبت فيها إلى السينما مع سام، وجلست بقربه، وفي كل مرة كانت تفكر فيه، كانت تفكر في تلك اللوحة التي أقامها على واجهة فنائه ومكتوب عليها للبيع. وقريباً جداً سيغيب عن حياتها... سيغيب حقيقة...

إنتهى الفيلم بشكل ما، وعادت إلى المكتب حيث استقلت سيارتها ومن ثم اتجهت نحو بيتها. كان دستي ينتظرها عند الباب الخلفي. وعندما أدخلته. ذهب مباشرة إلى الوعائين الخاصين به، حيث شرب أولاً، ثم وجه انتباهه بعد ذلك، إلى طعامه. وما أن ألقت ميغان بمفاتيحها وحقيبة يدها على منضدة المطبخ، حتى أدركت أنها قد نسيت تفقد صندوق البريد قبل أن تدخل الكاراج. وفكرت في أن ترجىء ذلك حتى الصباح، ولكنها اعتادت إرجاء أمور كثيرة مؤخراً، ولن تفعل ذلك الآن.

وفي منتصف الفناء، سمعت باب سام الأمامي يفتح. وكان برايان يصرخ بشكل مخيف. فحبست ميغان أنفاسها هناك شيء خطير حقاً.

ذكرت نفسها بأن ليس لها أن تتدخل بعد الآن، ولكنها لم تستطع أن تكبح قلقها وهي تسمع صراخ الطفل العنيف.

وتناهى إلى سمعها صوت بيكا يرتفع فوق نحيب أخيها، وهي تصيح بكآبة: «لماذا علينا أن نذهب إلى المستشفى؟»

فأجاب سام بحدة وقد ظهر الإحباط في صوته جلياً: «لأن الطبيب هناك.»

فتح باب السيارة وهو يتصارع مع برايان الذي كان يرفس برجليه. وعندما أضاء مصباح السقف، أمكن لميغان أن ترى برايان يتلوى ألماً، ويقاوم سام بكل قواه. ولم يستطع سام أن يجلس جسم الطفل الصغير على المقعد بجانبه، إذ كان هذا يرفسه ويضربه بعنف.

ولم تتردد ميغان. فركضت نحو السيارة، وقالت لبيكا: أدخلي وضعي الحزام، يا حبيبتي. وكانت هذه تقف مرتدية بيجامتها وخفيها، تراقب المشهد بعينين فزعتين. وصرخت ميغان لكي يعلو صوتها فوق صوت برايان: «سام.»

فاستدار سام يواجهها. ما الذي أتى بها إلى هنا، في الوقت الذي هو في أمس الحاجة فيه إلى شخص ما؟ بحاجة إليها. كلا. إن ذهنه يرفض هذا بكل قوته. إنه لن يسمح لها بالإقتراب منهم مرة أخرى. ولو لعدة دقائق.

فعادت تقول: «سام. إنني أدرك شعورك. ولكنك بحاجة إلى يدين تساعدانك، ولا يوجد الآن سوى يدي.»

وكاد يقتلها رؤية الدفء الذي بدا أولاً في عينيه، يستحيل إلى برودة وألم. كان يبعدها عنه. ولكن لم يكن الوقت يسمح بأن تفكر في آلام قلبها في الوقت الذي كان فيه برايان يتألم.

وأخيراً قال سام: «لا بأس. أيمكنك أن تقودي؟ ليس

بإمكاني أن أجعله يجلس على مقعد السيارة، ولا أظنك من القوة بحيث تستطيعين حمله.»

فأومأت برأسها، ثم ركضت إلى بيتها لتحضر حقيبة يدها، ثم عادت راكضة إلى السيارة حيث أعطاها سام توجيهاته إلى المستشفى بينما كان هو يجاهد في حمل برايان ويحميه من التسبب بالأذى لنفسه. وكانت كل صرخة من الطفل تمس شفاف قلبها.

قالت تسأل سام بعد أن أوقفت السيارة أمام المستشفى، ثم ركضوا نحو مدخل العيادة: «ما الذي تظنه يعانيه؟»

«أرجو أن يكون التهاباً آخر في الأذن.»

وخرجت إليهم ممرضة تقول: «قال الدكتور دوسيستر أن ندخلك على الفور.» وسارت بسام وبرايان نحو غرف الفحص.

وعندما غيبته والطفل، الأبواب الأتوماتيكية، تنفست ميغان الصعداء لأول مرة منذ سمعت صراخ برايان المتألم وقادت بيكا إلى غرفة الإنتظار حيث تسلقت هذه أحد الكراسي وقد بدت ضيئلة الحجم ممتلئة خوفاً.

قالت لها ميغان: «إن الطبيب سيجعل برايان أحسن حالاً. وهو سيصبح على ما يرام.» وعندما لم تتلق من الطفلة جواباً، أضافت تقول: «ربما ليس الأمر أكثر من ألم شديد في أذنه.»

فبقيت بيكا صامتة والخوف يكسو ملامحها. وتاقت نفس ميغان لوضع الطفلة على ركبتيها ومواساتها. ولكن لم يكن يحسن من ميغان أن تتلاعب بعواطف الطفلة. ووجدت

بعض كتب الأطفال فحملتها إلى بيكا. فأخذت هذه الكتب، ولكنها لم تنظر فيها.

عندما تناهى إلى مسامعهما صوت صراخ برايان آتياً من غرفة الفحص، قالت ميغان تخاطب بيكا بلطف: «تحدثي إليّ، يا حبيبتي، سيصبح كل شيء على ما يرام.»

فنظرت بيكا إليها وقد اغرورقت عيناها بالدموع: «لقد ذهب البابا والماما إلى المستشفى.»

وما أن سمعت صوت الطفلة الناضح بالألم والخوف، حتى جذبتها إليها تجلسها على ركبتيها وتحتضنها بحنان سواء كان تصرفها هذا خطأ أم صواباً، فالطفلة بحاجة إلى المواساة وليس بإمكان ميغان تجاهل هذا.

قالت لها بحنان: «إن أخاك سيكون بخير.»

«هذا ما قاله خالي... أعني بابا عن ماما وبابا الحقيقيين.»

فاحتضنها ميغان بشدة، وعندما تصاعدت شهقات الطفلة، أخذت تهدهدها قائلة: «ذلك أمر مختلف، يا حبيبتي، برايان لا يعاني سوى من ألم في الأذن.»

فرفعت بيكا نظرها إليها وقالت: «ولكن لماذا يصرخ بهذه الشدة؟»

«أحياناً وجع الأذن يكون شديداً، وهو طفل صغير، لا يعرف ما يفعل عندما يتألم، سوى الصراخ.»

فمسحت دموعها بمنديل ورقي ناولته ميغان لها.

وهي تقول: «ما زلت أتمنى أن تكوني أمي. ساكون عند ذاك، مسرورة جداً.» أسرعت تقول ذلك قبل أن تدع لميغان مجالاً للإحتجاج.

وشعرت ميغان بقلبها يكاد يتحطم إزاء هذه اللهفة الضارعة. لم تكن تريد شيئاً أكثر من أن تقول نعم. ولكنها لا تستطيع. كيف بإمكانها أن تجعل الطفلة تدرك أن ليس بإمكان المرء أن ينال دوماً ما يريد؟ حتى ولو كان ما يريده أهم شيء عنده في الحياة؟

فكرت في مقدار وحدتها، وفي الفراغ الذي ستكون عليه بقية ايامها. وعندما ألقت بيكا برأسها على صدر ميغان أثناء انتظارهما أن يفرغ الطبيب من علاج برايان، حتى أخذت ميغان تفكر في هذا الظلم الذي أحاط بهم جميعاً.

دخل سام إلى غرفة الإنتظار حاملاً برايان الذي كان ينشج باكياً، وذلك بعد ساعة ليجد ميغان تحتضن بيكا التي كانت تذرف الدمع. وكان أول فكرة طرأت على ذهنه هي أن ميغان هي بالضبط من هم جميعاً بحاجة إليه.

ولكنه قرر بعد ذلك أن شعوره يجب أن يكون الغضب فقط. يجب أن يكون غضبه من ميغان غير محدود. فقد عانى منتهى الصعوبة في الشرح لبيكا سبب عدم إمكان مجيء ميغان إليهم. وعليه الآن أن يبدأ كل ذلك من جديد.

ونظرت إليه بعينين مليئتين بالاهتمام وسألته: «هل هو بخير؟»

قال: «إنه التهاب أذن آخر. وهذه المرة في الأذنين.» وعندما رأى نظرة الإرتياح في عينيها تابع يقول: «لقد أعطاه الطبيب إبرة وقطرة قوية للأذن لأجل الألم. وهو سيأخذ له موعداً من الطبيب المختص صباح الاثنين لأنه لم

يستطع أن يدرك السبب في تكرار إصابة برايان بهذا الإلتهاب.»

فقالت له: «لقد كانت بيكا قلقة حقاً.»

جلس على المقعد بجانبهما، وأسند برايان إلى كتفه، ثم مد يده الأخرى إلى بيكا. فتركت هذه حضن ميغان وتقدمت لعناقه. ومن فوق رأس الطفلة، حدّق إلى ميغان. فاحتبست أنفاسه للهفة التي شاهدها على ملامحها وهي تراه يحتضن طفليه.

وكذلك للحب الكبير الذي يشعر به نحوها. لقد ازداد شوقه إليها أثناء انفصالهما. الآن، بعد هذه اللحظات الثمينة التي ساعدته فيها أثناء أزمة أخرى، لم يعد يدري كيف سيستطيع العودة للعيش من دونها، أو كيف بإمكانه أن يعيش وحده، متذكراً، على الدوام، تلك النظرة الكئيبة في عينيها.

وابتدأ برايان، بعد معركته مع الطبيب وعلاجه، بالتململ، ثم بالبكاء. رفع رأسه فوقعت عيناه على ميغان. وكما فعل في أول يوم رآها فيه، وفي مرات كثيرة بعد ذلك، مدّ ذراعيه يريدها.

فترددت ناظرة إلى سام مستأذنة، ليدرك هذا أنه يكره منها هذا التردد. يكره أن يعلم شعورها بعدم استطاعتها مدّ يديها لتأخذ ما تريده وتحتاجه. كان متفهماً رغبتها في عدم إقحام نفسها أو التسبب لهم بمزيد من الألم، ولكن تفهمه هذا لم يخفف من تلك الكراهية.

في اللحظة التي وضع فيها برايان بين ذراعيها، إستكان الطفل إلى صدرها، واضعاً إبهامه في فمه، ثم مد يده الأخرى يربت بها على وجنتها.

قالت بيكا: «أنظرا. إن برايان ما زال يحب ميغان أكثر من كل شيء.»

فحاولت ميغان الإبتسام، ولكنها لم تستطع. فهذه ستكون المرة الأخيرة. المرة الأخيرة التي تحمل فيها هذا الطفل وتراه ينظر إليها بمحبة. المرة الأخيرة التي تواسي بها بيكا بينما هذه في حضنها. المرة الأخيرة التي ترى فيها سام جالساً بقربها، وتسمع رنة صوته.

سألها وفي صوته رجفة: «هل يمكنك التحكم فيه؟»

فأومأت برأسها لا تستطيع النطق.

وعندما أصبحوا في الخارج، وضع بيكا بجانبها في مقعد السيارة الأوسط، شاداً الحزام حولها.

أخذت، أثناء قيادته السيارة، تمعن النظر في جانب وجهه، لتحفظ كل خط فيه عن ظهر قلب.

وسرعان ما كان يوقف العربة أمام منزله. فساعد بيكا على الخروج. وترك لميغان لحظة تعد فيها برايان للذهاب إلى أبيه، ولكن الحياة بأجمعها لم تكن كافية لتجعلها مستعدة للتخلي عنه. تنفست بعزم، ثم رفعت الطفل بين ذراعيها، ولكن عندما حاول سام أن يأخذه منها، أخذ برايان يصرخ ويضربه على يده.

توقف سام عن الصراع مع الطفل، وأخذ ينظر إليه وهو يعود ليستقر بين ذراعي ميغان. كان الصبي يعرف ما يريد ويعرف ما كانت ميغان تمنحه له... مواساة، اهتمام، حب. نعم، كان الصبي يعرف ما يريد ويعرف كيف يقاتل للإحتفاظ به.

سألها سام دون أن يعرف تماماً لماذا لم يكن يريد

أن يدعها تذهب: «هل لك أن تحضريه إلى الداخل؟»

فتألقت عيناها بالسعادة، ثم ما لبث التألق ذاك أن خبا. وأحس هو بأنها تفكر في الوقت الذي سترحل فيه. هل فكرت قط في مقدار الوحدة التي سيشعر هو بها من دونها؟

ساعدها في الخروج من العربة، ومن ثم دخلا منزله.

وبقلب قد سبق وتحطم، سارت ببرايان إلى غرفته. ولم يشأ الطفل أن يوضع في سريره، فأخذ يبكي وهو يمدّ لها ذراعيه وقد بدا التوسل في عينيه.

قال سام من خلفها: «ربما إذا أعطيته زجاجته.»

فأومأت، ثم جلست على الكرسي الهزاز، مسرورة بهذا العذر الذي يؤجل رحيلها، وحائرة لرغبة سام في السماح لها بالبقاء.

بعد فترة قصيرة، دخلت بيكا تحمل زجاجة الحليب وهي تقول: «يقول البابا ان بإمكاني أن اقبلك قبلة النوم.»

ولم تفهم ميغان معنى تصرفه هذا. ولكنها كانت مسرورة بأن تأخذ هذه القبلة الناطقة بالحب والحنان من هذه الفتاة الصغيرة الذهبية الشعر، وأمسك برايان بزجاجته، تاركاً ميغان لتحتضن بيكا. ثم رفعت ميغان بصرها لترى سام يراقب هذا المشهد، وقد بان الغموض في ملامحه. لا بد أنه يعلم أنه بذلك، إنما يجعل رحيلها أكثر صعوبة بالنسبة لكل واحد منهم. ولكنه لم يستعجل بيكا.

وعندما قالت تصبحين على خير، إبتعد عن العتبة ليتبعها إلى غرفة نومها.

وأخذت ميغان تغالب دموعها. فهي لن تفسد هذه اللحظات القليلة الباقية لها بينهم، بالحسرة والندم. فأخذت

تتملى من الإبتسامة الناعسة التي منحها إياها برايان، ومن الطريقة التي قبضت بها يده على إصبعها، ثم أخذت تنظر في عينيه اللتين كانتا تغمضان شيئاً فشيئاً. وأمسكته مدة طويلة بعد أن ترك زجاجة الحليب.

لم تدرك كم من الوقت مرّ عليها جالسة، قبل أن ترى سام يقف عند العتبة. فاستجمعت شجاعتها لكي تدع سام يأخذ الصبي، ولكنه، بدلاً من ذلك، وقف هناك يحدّق إليها بجدية تامة لم تفهم سببها.

ثم قال بهدوء: «هنالك شيء عليّ أن أخبرك به.»

فعضت شفتها، منتظرة الكلمات التي ستنهي كل تلك الأوقات الرائعة التي استمتعا بها معاً.

وتابع قوله: «لقد بقيت أذرع غرفة الجلوس طوال نصف الساعة الماضية، محاولاً مناقشة حبي لك بالمنطق.»

ما الذي كان يقوله؟ فتحت فاها ولكنها لم تستطع النطق بكلمة. وبين ذراعيها كان برايان يرقد بسلام غير واعٍ للخوف والأمل اللذين كانا يتنازعانها.

«حدثت نفسي بأن اي ارتباط يستغرق وقتاً. لقد سبق وساعدت عشرات من الناس في استجماع شتات أنفسهم بعد أن يسقط الواحد منهم منهاراً. وقلت لنفسي إننا لا نكاد نعرف بعضنا البعض...»

فقالت بلطف تحثه: «لكي أثق بك؟»

«نعم. إننا لم نعرف بعضنا إلا منذ... منذ متى، شهر ستة أسابيع على الأكثر. فكيف حدث إذن أن وقعت في حبك؟»

لم تجرؤ قط على أن تحلم بهذه الكلمات يقولها لها، فنظرت في أعماق عينيه الزرقاوين، شاعرة بنفسها وكأنها تقف على حافة جرف شاهق، ورأسها يدور لعلوّه، وهي تعلم أن عليها أن تقفز عنه.

همست تقول: «لا أعلم، الذي أعلمه هو أنني أحبك أنا أيضاً. لقد حاولت ألا أسمح لنفسي بذلك. حاولت ذلك حقاً. كنت شديدة الخوف...» وتهدج صوتها. وانحدرت دمعة على خدها.

مد يده يأخذ منها برايان، الذي لم يكد يشعر بذلك، ثم يضعه في سريره.

لم يعد ثمة محاولة للسيطرة على تلك العواطف، بعد الآن وتصاعدت خفقات قلب ميغان. إن سام يحبها، ويريدها بنفس الحجم الذي تشعر هي به نحوه. ولكن، هل سيكون هذا كافياً؟ إنها لا تستطيع أن تخسره مرة أخرى... لا تستطيع... لا تستطيع.

عندما عاد نظر إليها، فأدرك أنها كانت تبكي. همس لها: «إنني أحبك.»

فأجابت: «وأنا أيضاً أحبك، يا سام.»

لم تكن تريد أن تبكي، ولكنها لم تستطع التوقف عن ذلك.

سألها: «أهي دموع السعادة؟»

فأومأت تقول: «نعم، وأنا... أنا لن أستطيع الاحتمال إذا...» وسكتت.

فسألها، ناطقاً بالكلمات التي لم تستطع النطق بها: «إذا تحطم كل هذا؟» وعندما أومأت برأسها، تابع: «وأنا أيضاً لن أستطيع احتمال ذلك. إذن فقد اتفقنا على أن البقاء معاً هو أهم ما علينا القيام به.»

هتف قلبها، نعم. آه، نعم. ولكن، كان هنالك شيء لم يأت على ذكره. فقالت: «وماذا عن الأولاد؟ إنك كنت أخبرت بيكا أنك تريد المزيد من الأولاد.»

«تزوجيني وسيكون لدينا اثنان... بيكا وبرايان. وإذا لم يكونا كافيين، فهنالك الكثير من الأطفال بحاجة إلى الحب والحنان اللذين بإمكاننا، نحن الإثنين، تقديمه لهم.»

وشعرت ميغان بقلبها يكاد يتفجر بالسعادة. ولكن لا زال هنالك شيء ضئيل من الحذر يتملكها، «وهل بهذه السهولة ستتخلى عن فكرة الانجاب؟»

«ليس بهذه السهولة. فقد بقيت فترة أتصارع مع هذه الفكرة.» وأطلق ضحكة خافته تخوي خيبة الأمل، «إنك لا تدركين كم من الأوقات كنت أتصورك فيها تحملين طفلاً مني.»

«ولكن هذا لا يمكن أن يحدث.»

«ولهذا سألت نفسي عن مبلغ أهمية ذلك عندي، بالضبط. وفي كل مرة كنت أزن فيها كل الخيارات، كنت أختارك أنت.»

«رغم أنك كنت تظنين لا أثق بك؟»

«حسناً، لقد كنت على وشك الدخول في هذا الموضوع. لقد اتخذت هذه النظرية وهي أنك ربما في البداية، كان من الصعب عليك أن تكشفي ما بنفسك لانسان غريب. وفيما بعد... رجوت أن يكون الأمر مجرد خوف منك من أن أتراجع وأتركك.»

«كيف أمكنك قراءة أفكاري بهذه المهارة؟»

«لقد كنت محظوظاً هذه المرة. وفي المستقبل، لا أريد المزيد من الأسرار. أريدك أن تشاركيني بكل شيء عندك، يا ميغان.»

بكل شيء. نعم. هذا ما كانت تريد أن تكون عليه الأمور، هي أيضاً. وسألته مازحة:

«أتريد المشاركة حتى في هدايا الاعياد؟»

فقهقه ضاحكاً: «إنني أريد بهذا فقط أن أستخرج من أعماقك كل ما تخفينه.»

فرفعت نظراتها إليه، إلى الحب الذي يطل من ابتسامته.

«بابا.» تصاعد هذا الصوت الطفولي من عند الباب. «إنني لم أستطع النو... ميغان؟»

فجفلت ميغان بينما سألت بيكا وقد انتابتها الحيرة لبقاء ميغان في المنزل: «هل ستظل ميغان هنا؟»

فقال سام: «تعالي هنا، يا حبيبتي.»

فقالت وهي تتقدم نحوه: «لم أستطيع العودة إلى النوم.»

«حسناً إذن، ما دمت مستيقظة الآن، هل ما زلت تريدين أن تكون ميغان أمك؟»

فاتسعت عينا بيكا بسعادة، ثم ضاقتا بحيرة: «هل ستكون أمي حقاً؟ كما كانت ماما؟ وستعيش معنا هنا؟ وكل شيء.»

فأومأ سام: «لقد كنت على وشك أن أطلب منها أن تتزوجني.»

فقفزت بيكا فرحة وهو يقول.

«تزوجينا كلنا. قولي نعم، يا ميغان. قولي نعم.»

فقالت ميغان ضاحكة: «نعم. سأتزوجكم كلكم.»

فألقت الطفلة بذراعيها حول عنق ميغان «لا أستطيع الإنتظار حتى الصباح لكي أخبر فرانسي بأنه سيكون لي مرة أخرى ماما وبابا. وإنه ليس على ميغان الآن أن تشتري أثاثاً.»

فنظر سام وميغان الواحد منهما إلى الآخر وضحكا. هز سام رأسه بعجب: «لقد كانت فكرت في كل شيء.»

فألحت عليه بالسؤال: «أيمكنني أن أخبر فرانسي؟»

فقال لها: «عند الصباح. إنما فقط إذا ذهبت إلى سريرك ورقدت تماماً بظرف خمس دقائق.»

فأسرعت إلى غرفتها. وعند الباب توقفت لتقول: «هل ستكون ميغان هنا عندما أستيقظ؟»

فأجابها: «نعم. ستكون هنا.»

وعندما أصبحا بمفردهما، قالت ميغان: «أليس لي أن أقول شيئاً في هذا الأمر؟»

«يمكنك أن تقولي ما تشائين.»

ولكن ما أن انتهى من كلامه، حتى أخذ برايان بالبكاء مرة أخرى. فأخذ يزمجر حين اندفعت ميغان لتحضر الطفل المسكين. قال وهو يتبعها إلى غرفة برايان: «ليست هذه هي الطريقة التي أردت بها الإحتفال بزواجنا.»

فابتسمت وسألته: «هل ستأتي إيمالين صباح الغد؟»

فأومأ، ثم أشرق وجهه: «هل تفكرين في الذي أفكر أنا به؟»

«ان بإمكاننا الذهاب لعقد زواجنا؟»

استقرت ميغان في الكرسي الهزاز وهي تحمل برايان.

سيكون برايان ابنها، وستكون بيكا ابنتها. سيكونون أسرتها. وخلال كل الأفراح والأحزان والقلق التي تحفل بها الحياة، سيكون سام إلى جانبها على الدوام.

تمت

www.elromancia.com
مرمورية